العائدون للنشر

مهند محمد عميرة

جنازتان في مخيم النصر

رواية

جنازتان في مخيم النصر

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2024/8/4748)

عنوان الكتاب: جنازتان في مخيم النصر

تأليف: عميره، مهند محمد حسني

بيانات النشر: عمان: العائدون للنشر والتوزيع، 2024

الطبعة: الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9923-832-09-7 (ردمك)

* جنازتان في مخيم النصر
* مهند محمد عميرة
* التنسيق والإخراج الفني: العائدون للنشر
* لوحة الغلاف: الفنانة رهف ياسر أبو غوش
* تصميم الغلاف: الفنانة لمى سخنيني
* الطبعة الأولى: 2025

AL.AEDOUN
+962 79 2076184
+962 77 6817399
al.aedoun.m@gmail.com
oashabanah@gmail.com
@al.aedoun

عمر شبانة
مدير ومحرر مسؤول
مكتب 11، مجمع يوسف التجاري، شارع الكرمل،
جبل الحسين، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية

الحقوق محفوظة للناشر

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينهما في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلهما بأي شكل من الأشكال دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.

All rights preserved. No part of this book may be produced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or any means without prior permission in writing of the publisher.

الطباعة: مطبعة جوري - Jorry Press
0796937555
سنة الصدور: 2025

مهند محمد عميرة

جنازتان في مخيم النصر

رواية

العائدون للنشر
2025

إهداء ...

إلى كل من ألقى الله في قلوبهم الرحمة

واختبر عدلهم بإعطائهم القوة

فلم يتجبّروا بها

ولم يؤذوا ضعيفًا

إلى الذين سبق العطفُ قراراتهم

فخرجت رقيقة لينة

إلى من خاصم برفق

وعاتب بشفقة

ولام بحنان

وقاد بلين

إلى كل من استذكر

أن الله ارتضى لنفسه أن يكون "رحمانًا رحيمًا"

-1-

ماذا! أعيدي ما قلتِ، أيتها الجاحدة، لم تكوني قادرة على قول هذا الكلام بالأمس فقط! كان أبي حكيمًا حين أخبرني بأنكنّ معشر النساء تنكرن المعروف، وها أنتِ تنتهزين أول فرصة تتاحُ لكِ، ثمّ تقولين كلامكِ هذا!

يا لكِ من ناكرةٍ للجميل، وأنتم كلكم منافقون، سمعتموها وسكتّم، لم يرد أحد عليها، جمال، ثابت، صدام، عفاف، هل ربيتكم على هذا؟ أم أنكم تسايرونها بسبب حالتها النفسية؟ ولكن، يا إلهي، من المفترض أن تدعوها حالتُها النفسية لمدحي، وليس لذمّي!

***

نوال، لماذا لا تشاركينهم؟ هل أنتِ زعلانة مني، أم منهم؟ إذا كنتِ لا تجلسين معهم في الصالة بسببي، فلن أغضبكِ بعد اليوم أبدًا، ولكن إذا كانوا هم السبب، فأنا غير قادر على السيطرة عليهم بعد اليوم، فلا أعدكِ بشيء بخصوصهم، تبكين، لجأتِ إلى المطبخ لتبكي إذًا، لماذا لم تردّي على سميرة؟ مؤكد أنكِ سمعتِها، صوتها كان عاليًا، والبيت صغير، هذه التي نسميها صالة لا يعتبرها غيرنا أكثر من مدخل للبيت، وغرفتا النوم والمطبخ والحمام مرتبطة بها مباشرة، نسمع بعضنا في البيت بوضوح.

- هيا يا ثابت.

انتظِرْ يا جمال، لا تستعجل ثابت، سنغادر دون أن أسمع شيئًا آخر من سميرة، يا إلهي! تمهلوا، ربما تغيّر رأيها، أو تبرّر ما قالته، ما زال أمامنا بعض الوقت، كم الساعة الآن؟ لا أستطيع معرفة الوقت، ساعة الحائط متوقفة منذ سنوات، بالرغم من أنها تحتاج بطارية فقط، أظن الساعة قريبة من العاشرة، نستطيع أن نبقى نصف ساعة أخرى.

***

هذا الليل مختلف عن الليل الذي أعرفه، كل شيء فيه واضح، لا معنى للأنوار، أرى كل التفاصيل في غرفة نومي المطفأة، سريري وخزانتي، وصورة أبي يحمل بارودة "كيربراينر 98 ك"، كان يفتخر دائمًا أنه قتل بها اثني عشر جنديًا صهيونيًا، أصدقاؤه كانوا يسمونه "أبو دزّينة"، ويتندرون عليه لأنه قتل جنودًا من ثلاثة قارات، حتى أصبحوا هم أنفسهم يخافون منه، كنت أرى احترام الناس الزائد لي لأنني ابنه.

***

دوار فلسطين! وصلتُ إلى هنا بهذه السرعة، لم أنتبه للمسافة التي قطعتها، مررتُ على مقبرة "ماركا الجنوبية"، ولم أقرأ الفاتحة للأموات، كل هذا بسببكِ، ولكن هذا أفضل، لا أريد أن أحس بوجودي عند مدخل البيت، هنا رأتكِ أمي أول مرة، وقررتْ خطبتكِ لي، كنتِ سعيدة جدًا حينها، على عكس حالتكِ الآن، ولكن أنتنّ النساء هكذا، لا تقدرنَ قيمة الأشياء بعد أن تملكنها، لا يحسن التعامل معكنّ إلا بالشدة، نعم، استغللتِ أول فرصة لا أستطيع الرد فيها عليكِ وإسكاتكِ لتقولي ما قلتِ، زمان غدار.

***

- الدنيا برد.

أين البرد؟ لا أحس به أبدًا، كان بردُ كانون الثاني ينخر في عظامي، الإنسان بعد الخمسين يشعر بالبرد والحر أكثر من غيره، لذلك - فمن عشر سنوات- صرت أحسب حساب الجو عندما أقرر الخروج، ألغيت وأجلت مواعيد كثيرة مع رامي لهذا السبب، أما الآن، فلا أشعر بشيء، الجو لطيف، ولا هواء فيه.

لأول مرة أمضي أربع ساعات غاضبًا، هذا الإحساس جديد عليّ، كنتُ أحسم أموري معكِ بكلمة واحدة، وفي دقائق ينتهي أي خلاف، لم يكن مهمًا إن كنتِ قد رضيتِ أم لا، كان مهمًا أن تقولي "حاضر"، الطاعة يا سميرة، حقي عليكِ كزوج، إن من تناقشه زوجته ليس رجلًا، ولكنك الآن تخالفين ما تعوّدنا عليه طوال فترة زواجنا، ثلاثون عامًا وأنتِ مطيعة، على الأقل أمامي، لا أستطيع أن أضمن لسانكِ وأنا غائب، هل هناك في الكون من يدّعي أنه يضمن لسان امرأة في غيابه! فعلتُ ما يفعله الرجال، أجبرتك على طاعتي واحترامي أمامي، المرة الوحيدة التي سمعتكُ فيها تسيئين إليّ بالكلام صفعتُكِ، فالمرأة لا تقول عن زوجها "الله ينتقم منك"، ولماذا ينتقم الله مني! لأني بعتُ الذهب الذي أهداه لكِ إخوتك يوم عرسنا، أنتِ إذًا تُضمرينَ لي السوء منذ ذلك اليوم، هل قلتِ ما قلته اليوم لأني بعت ذهبكِ قبل عشر سنوات؟ لم أبع الذهب لأقامر، ولا لأشرب الخمر، بعته لأجلكِ ولأجلِ أولادكِ، ثمّ إنّ أموال الزوجة حقٌ لبيتها ولزوجها، هكذا تفكر المرأة الأصيلة، ولكن أنتِ تغضبين وتحقدين من واجباتكِ، لا تقولي إنكِ غاضبة لأني ضربتكِ! لا يوجد رجلٌ في العالم لم يضرب زوجته، أنا رأيت أبي يضرب أمي، وأعلم أن أباكِ كان يضرب أمكِ، وأن إخوتكِ يضربون زوجاتهم،

لم أسمع عن أحدٍ لم يضرب زوجته إلا رامي، ولكني لم أعدّه رجلًا في حياتي.

***

حسنًا، بما أنكِ لن تفسري سبب كلامك، وبما أني ما زلت مشتعلًا، ولا سبيل لتخفيف اضطرابي كالسابق، لا سبيل للضرب ولا للنهر، فسأفعلُ ما لم أفعله طوال حياتي، سأتبع طريقة جديدة أخبرني بها رامي ذات يوم، ذلك "الرجل" يناقش زوجته بالتفصيل في كل شيء، الفرح والحزن، حتى شؤون الأسرة، تصوري أن أسألكِ عن أسباب غضبك، وبالتفصيل! أنتنّ النساء تعشقن التفاصيل، ولكني الآن خالٍ، لا عمل ولا أصدقاء، وإذا تكلمت معكِ لن يعايرني أحد، كما أعاير رامي، انتهى زمن اللوم، وجاء زمن آخر، زمن عجيب دفعني للكلام معكِ عن أسباب انفعالكِ، كما دفعني للتفكير في التأقلم إلى الأبد مع هذه الظروف الجديدة، أنا أتأقلم! شرحتُ كثيرًا لطلابي عن السلحفاة، وعن اختبائها في درقتها عندما تشعر بالخوف، أحسّ الآن بشعورها تمامًا، هذا الزمان حولني من رجلٍ إلى سلحفاة.

-2-

بصراحة، لا أدري من أين أبدأ، فلم أتخيل نفسي في هذا الوضع أبدًا، سأبدأ من أبسط الطرق، الطريقة الزمنية، سأستعرض حياتنا منذ دخلتِها، حتى هذا اليوم، الذي طاوعك فيه قلبك على قولِ جملتك، بدأت قصتي معكِ في يوم عادي من أيام 1990، عدتُ من المدرسة، وكنتُ حينها مدرّسًا للمرحلة الإعدادية، يومها سألتُ أمي عن الغداء، فأجابت:

- متى ستريحنا من واجباتك؟ أصبحتَ في الثلاثين من عمرك، وما زلتَ بدون زوجة، أنت ابني الوحيد، وأريد أن أفرح بك، وأرى أحفادي قبل أن أموت.

- تريدينَ أن تسجنيني إلى الأبد لتَرَيْ أحفادكِ.

- هذا الكلام يقوله ولدٌ طائشٌ في العشرين، أما أنت فقد وصلت الثلاثين، ولا يجوز أن تتكلم هكذا.

أذكرُ أن أمي صمتتْ تتأملني بحسرة، ثم تابعت:

- الناس بدأت تتكلم يا بني.

- لا يتكلم الناس عن الرجال، بل يتكلمون عن النساء، لم أسمع في حياتي أن رجلًا قيل له "عانس".

- الرجل لا يقال له عانس، يقال له أشياء أخرى تمسّ شرفه أو رجولته، مثلًا: "ليس أهلًا للزواج، أو لا يتزوج ليصاحب البنات"، أو...

أكملت مترددة:

إذا كان الرجل "لا يعيبه إلا جيبُه"، وأنت ميسور الحال، فلماذا لا تتزوج! هل تعيبكَ أشياءُ أخرى!

انفجر الدم في وجهي يومها، وصرختُ:

- أنا تعيبني أشياءُ أخرى!

ودخلت غرفتي أفكر في هذا المجتمع القذر، وتذكرت كلام أبي -رحمه الله: "نحن نعيش مع بشرٍ ناقصة، لتحسن العيش معهم اقفلْ عليهم أيَّ بابٍ للتقوّل، وواجههم ندًّا بندٍ"، فقررتُ يومها أن أُخرِسَ كلَّ لسانٍ يهذي، وأن أقطع على الناس كل طريقٍ يدخلون منها ليتحدثوا بالسوءِ عن رجولتي، سأتزوج، وأنجب في أول سنة، لأحمل طفلي إلى الناس، وأقول لهم بكل وضوح "أنا رجل". خرجت من غرفتي، وقلت لأمي:

- سأتزوج فورًا، ابحثي لي عن عروس.

وغادرت المنزل دون أن أسمع جوابها، أو أرى ملامحها، ولا أعلم إذا كانت قد أخذتِ الأمر بجديّة، أم اعتبرته كلامًا من رجلٍ غاضب سيمحوه النهار مع طلعته. مشيتُ إلى "نادي السباق"، ولم أدخل بين البيوت نحو منزل رامي، بل أكملت سيري في الشارع الرئيس، وجلست على سور الحديقة، كنت أذهب هناك كثيرًا عندما أكون منزعجًا، أخذت أفكر في كلام أمي، ولم أنتبه للوقت، كأني كنت نائمًا، وأيقظني صوت المؤذن الذي صدح من مسجد "أصحاب الرسول" - الملاصق للحديقة- في أذني، نزلت عن السور، وتابعت المشي حتى نهاية الشارع، كلام أمي ضايقني، جعلني أفكر في أمور جديدة، وألقاني بين خيارين مرّين، أحسست كأني قائد جيش اكتشف فجأة أن دفاعاته مكشوفة، ولا يمكن السيطرة عليها.

اتجهت مع الطريق يسارًا نحو "شارع المطار"، قررت أن أعود نحو بيت رامي عبره، وشارع المطار كما تعرفين مليء بالناس، أسَر تتنزه، وشباب تتمشى، وسيارات واقفة يدوّي منها صوت الأغاني، رأيت مجموعة من الشباب تمشي وراء بنت: "يا حلو، بَس نظرة"، تعالي يا أمي، وانظري للبنات، الزواج مقلق، امرأة يعني شرف وعرض، وزواج يعني همّ، وخوف مستمر من فضيحة، ولكن المجتمع لا يرحم، أي عذاب حمّلتني يا أمي بكلامك!

انعطفت يسارًا بجانب الحديقة، وعبرت الشارع نحو البيوت، لأتوجه إلى بيت رامي، كان نائمًا، وطلبت من زوجته أن توقظه:

- اغتسل، والبس، وقابلني في المقهى.

- انتظرني، لنذهب معًا، لن أتأخر.

رفضت انتظاره، أحسست أني أريد أن أمشي أكثر، المشي يخفف التوتر، وهواء الربيع منعش، يغسل الهموم. المقهى الذي تعودنا أن نجلس فيه قريب من بيته، رآني رمضان عامل المقهى، وقال:

- كيفك يا أستاذ؟ قهوة حلوة للأستاذ نصر.

وصل رامي بسرعة، يُحتمل أن الساعات هي التي كانت تجري فهيأت لي مجيئه في فترة قصيرة، فالبال إذا كان مشغولًا تمرّ الأوقات على صاحبه دون أن يشعر بها، ولا يدري كم مضى منها إلا بعد أن يفيق من خيالاته، مثل المريض الذي تعرّض للبنج، لا يشعر بالألم إلا عندما يبدأ مفعول التخدير بالانتهاء، رددت على رامي سلامه باختصار، فضحك بصوت عالٍ، هذا الأحمق يضحك كلّما رآني غاضبًا، ربما لأنه يستهين بالأمور التي تغضبني، لم يصرّح لي بهذا أبدًا، ولكني أظن الأمر كذلك، فرامي مختلفٌ عني كثيرًا، يفكّر كأنه ولد في إحدى

ضواحي لندن، يتحدث عن الحقوق والمساواة والديموقراطية، ويقتبس من "دريدا" و"فوكو"، بالنسبة إليه المرأة كالرجل، والمعلم كالطالب. هذا ما جلبتْه لنا العولمة، واتفاقيات "سيداو" وحقوق الإنسان، لذلك فأنا أحاول ألا أناقشه أبدًا في أمرين: الزواج والتعليم، ومن أجل هذا قررت تجاهله حين سألني:

- لماذا أنت عابس ومكتئب؟ آه، نسيت أنك رجل!

- وما أدراكَ أنت بالرجولة يا حفيد "تشارلز"!

قضينا بعض الوقت نستفز بعضنا، أنا أزداد احتراقًا، ورامي يزداد ضحكًا. استمرت صداقتي معه سنين طويلة لأنه كان صديقًا وفيًا، يعرف حقي كصديق، ويكون معي في أفراحي وأحزاني، ولو كانت الصداقة بتشابه الأفكار، لما استمرّت صداقتنا لساعة. حين انتهينا من تبادل الشتائم، قال لي:

- ما بكَ يا رجل؟ لننهِ هذا المزاح، ونتكلم بجدية، هل هناك ما يضايقك؟

- أمي تريدني أن أتزوج.

قهقه رامي كعادته القذرة، فتابعت:

- إذا استمررتَ في ضحكك سأضربكَ بالكرسي، وأغادر، صديق وغد.

- حسنًا، لن أضحك، ولكن الزواج لا يجعل الرجل مكتئبًا كما تفعل.

- وهل يجعله ضاحكًا طول الوقت كما تفعل أنت!

- سأخاطبك بلغتك أيها الجاهل؛ "إذا كان الزواج مغامرة، فالعزوبية انتحار".

عدنا لاستفزاز بعضنا كما نفعل في كل مرة نتكلم فيها عن امرأة، ثم سألني سؤالًا عجيبًا، نظرت في وجهه لأختبر صدق سؤاله غير المألوف، وتأكدت أنه أنهى هزله فعلًا، أعرف رامي عندما يكون جادًا، قال لي:

- وما هي المواصفات التي تبحث عنها في عروسك؟

- مواصفات! النساء كلهن متشابهات أيها الغبي.

أذكر أن رامي حينها أزاح رأسه عني للناحية الثانية، ووضع يده على فمه ليخفي ضحكةً سخيفةً أعرفها، ثم أغمض عينيه، ذلك الوغد مشفقٌ علي، الأولى أن أشفق أنا عليه، وعلى رأسه المليئة بأفكار عجيبة. التفت إليّ بعد دقيقتين:

- وما هي مواصفات النساء كلهن اللاتي ستتزوج واحدةً منهن؟

- النساء وجدن للطبخ والإنجاب وطاعة الزوج، لذلك يجب أن تكون زوجتي المستقبلية طباخة ماهرة، ومربية فاضلة لأولادي، وأن لا تناقشني في قراراتي، وأن تراعي أمي.

- وماذا عن التعليم؟

- ماذا؟ التعليم يفسد أخلاق الفتيات، كأنك لم تتخرج من الجامعة، ولم ترَ البنات فيها تكلم الرجال بأريحية، متى ستفهم أن البنت إذا فقدت خجلها أصبحت كالرجل!

صمتُّ كأني أتذكر شيئًا غاب عن ذهني، ثم تابعت:

- أحسنت أيها الأحمق، أول مرة في حياتك تقول شيئًا مفيدًا بخصوص المرأة، ذكرتني بشرط جديد: ألا تكون قد دخلت الجامعة ولا عملت، حتى ليوم واحد، سأتزوج بنتًا عمرها ستة عشر عامًا، لأربيها على يديّ، وأضمن ماضيها وحاضرها.

لم يرد رامي، ربما لأنه كان يعلم أن كلامه غير مقنع بالنسبة لي، ولكني كنت أعرف جوابه، كان سيقول: "إننا الآن في التسعينات من القرن، المرأة تتعلم، وتدخل الجامعة مثل الرجل تمامًا، وتعمل، وتشاركه النهضة، الدول لا تتطور بالرجال فقط"، وقد برهن رامي على اقتناعه بكلامه هذا بالزواج من موظفة في "سلطة المياه"، زوجته جامعية، حاصلة على بكالوريوس الزراعة، أنتِ لم تزيها أبدًا، لم أشأ لكِ أن تقابليها طوال تلك السنين، لكي لا تملأ رأسكِ بالأفكار الغريبة، هم مختلفون عنا، ستؤثر عليكِ بسهولة، أنتنّ النساء تغيرن أفكاركن بالسهولة نفسها التي تغيرن فيها ملابسكنّ.

لا أدري لماذا تذكرت هذا الموقف مع رامي عند كلامي عن زواجي، ربما لأنه الوحيد في هذه الدنيا الذي يعترض على تصرّفاتي بصراحة، ويطرح علي وجهات نظره السخيفة، خصوصًا في أمور البيت والعمل. جاءتني فكرة الآن، سأستحضر كلام رامي وانتقاداته في كل المواقف التي عشتها معكِ، وأفترض أنكِ تفكرين بطريقة مشابهة، هذا هو الافتراض الوحيد أمامي الذي قد يفسّر ما قلتِه اليوم. ليتكِ تسمعينني فأنطقكِ وأعرف منكِ السبب.

رجعتُ إلى البيت يومها مبكرًا، تعمدتُ أنْ أصِلَ قبل أن تنام أمي، لأثبت لها أن كلامي جديّ، لم أشأ أن أنتظر حتى الصباح، فربما غيرتُ رأيي حينها، قلتُ لها:

- ابحثي لي عن عروس من الصباح الباكر.

ودخلت غرفتي، ولم أنمْ ليلتَها حتى الفجر.

-3-

بعد أسبوع من هذه الحادثة، أخبرتني أمي أنها وجدت عروسًا مناسبة، بنت في الخامسة عشرة من عمرها، رأتها تتردد على فتحية ابنة جارنا أبو محمد، يبدو أنها صديقتها، لا أدري إذا سألت عنكِ أم محمد أم لا، أظنها سألت، تفاصيل كهذه لم تكن لتفوتها، لكنها لم تحدثني بها. الجميل في الأمر أن أمي عرفت "مواصفات الفتاة" التي أريدها دون أن تسألني، امرأة حكيمة، تعرف الحياة، وتعرف النساء. مضت بضعة أيام قبل أن تجيء أمي لتخبرني أنكِ الآن في بيت أبي محمد، وأني أستطيع رؤيتك وأنتِ خارجة. وقفت في بلكونة البيت، لأنتظر خروجكِ، وبعد ساعتين وقفتِ مع فتحية في الممرّ الضيق أمام بيتهم، وحين رأيتكِ قلتُ لأمي:

- لا، لن تكونَ هذه البنت زوجتي.

- لماذا؟ أراها صغيرة ومحتشمة! حظك سيء يا ولدي، بنات عمك محمود كلهن كبيرات، أصغر واحدة بينهن عمرها ثلاث وعشرون سنة، فاتها قطار الزواج، وعمك أحمد استشهد في 1967، لو كان حيًا، لأنجب بنات صغيرات، أستغفر الله العظيم، "أحياءٌ عند ربهم يرزقون". ما لها البنت يمّا؟

- صغيرة ومحتشمة، لكنها جميلة.

الحق أنكِ كنتِ جميلة، صحيحٌ أنني لم أقل لكِ هذا أبدًا، ولكن الأمور اختلفت بدءًا من اليوم، الآن أتكلم وأنا مرتاح، لأنكِ لا تسمعينني، لذلك لا مشكلة إذا قلتُ إنكِ بقيتِ جميلة حتى آخر يومٍ رأيتكِ فيه، ولم أرد أن أتزوج من بنتٍ جميلة، لكي لا تلاحقها عيون الرجال، فرفضتُكِ في أول الأمر، واستمرت أمي في إقناعي لمدة أسبوعين، ولم تملّ من صياغة العبارات الجديدة في كل مرة تحدثني فيها في الأمر: "هل تريدُ أن تصحو على وجه قبيح؟ الزوجة الجميلة رزق من الله، تُنكَح المرأةُ لأربع: جمالها أحدهن"، والإلحاح أكثر مفعولًا من السحر، خصوصًا إلحاح المرأة، فقبلتُ، بل كدتُ أقتنع حين قالت في مرة من المرات: "أخفِ جمالها، واحتفظ به لنفسك، نقّبها".

هل غضبك مني لأني جعلتك ترتدين النقاب؟ لا أظن ذلك، حتى لو كان هذا هو السبب فلن يستمر غضبك لثلاثين عامًا، أنا رجل غيور، وحريص على زوجتي من عيون الرجال، إذا كنتِ جاهلةً فاعلمي أن الرجال ذئاب، لا توفر أي فريسة، احتشام البنت من عدمه بالنسبة لهم تفاصيلُ غير مهمة، أنتِ بالتأكيد لا تشاركين رامي منطقه العجيب، الذي جعله يسخر مني طوال الوقت، ولم يرحمني من كلامه وحكمه الخرقاء: "إذا شئتَ أن تتزوج من فتاةٍ تضمن لكَ أخلاق المجتمع، فاذهب وتزوج في المريخ إذًا". هل تفكرين كما يفكر رامي؟

توجهت جاهة من كبار عائلتنا إلى بيت أبيكِ، على رأسهم عمي محمود، ومجموعة من شيوخ العائلة، كانت جاهة ضخمة فيها أكثر من ثلاثمائة رجل، سعد بها أبوكِ حينها وعدّها تكريمًا لكِ وله، اتفق الرجال على مهر 1000 دينار مقدم، و3000 دينار متأخر، وهذا يوافق ما اتفقت عليه الناس من مهور في التسعينات، فلم أظلمكِ، ولم أبخسكِ حقكِ. تزوجنا بعدها مباشرة، أقمنا عرسنا في بيتنا، العرس

الأردني التقليدي السائد في التسعينات، اجتمع الأهل والجيران على "الدبكات" البسيطة غير المنظمة، وولائم "المنسف".

رأيتُ الحزن على وجه أمي، وإن كنت لم أفهمه في البداية، المعتاد أن تحزن أو حتى تبكي أم العروس، لا أم العريس، ظننت أن العرس لم يعجبها، حين سألتها لاحقًا أجابت بشيء لا يخصكِ ولا ينبغي أن يضايقكِ، قالت: "لو كان لك أخ، لكان الفرح اليوم فرحين".

***

وعشنا مع أمي في البيت، تذكرتُ، ذلك الأحمق رامي، قال لي مرة إن العيشة في بيت الأسرة يظلم الزوجة، هل أتركُ أمي ونوال يعِشن في البيت وحدهنّ! امرأة مسنة، وشابة صغيرة في الرابعة والعشرين، كيف سيتدبرن أمورهم؟ وماذا سيقول الناس عني؟ على أي حالٍ، فأنا لم أفاجئكِ بقرار معيشتنا المستقبلية في بيت الأهل، علمتِ به منذ البداية، ولم ترفضي، وإنْ كنتُ قد أحسستُ بالرفض في عيون أمكِ.

-4-

جئتِ إلى البيت، وابتدأت المشاكل، كان البيت قبل وصولكِ هادئًا، في حياتي كلها لم أسمع أمي تشتكي، كبرت وأنا أراها تعيش في سلام داخليّ، لا يتوقف لسانها عن قول "الحمد لله"، لا أعلم كيف حوّلتِ هدوءها إلى توتر، ودعواتها إلى تذمّر وسخط، لم تحسني إرضاءها، ولم تكسبي ودّها، رأيتُ بنفسي عنادكِ، ورفضكِ البارد لتعلم أشياء جديدة، وسمعتُ عن نومكِ حتى الظهر، وقلة حيلتكِ أمامَ واجبات البيت، من تنظيف وترتيب وطبخ، كأنكِ كنتِ رافضةً العمل في المنزل، أو منكرةً مهامّكِ الجديدة، كان على أمي أن ترتاح بعد ما بلغته من العمر، لكنكِ لم تكوني البديلة المناسبة. وفي يوم من الأيام، عدتُ من العمل، وجلست معكم للأكل، كانت أمي مغتمة، رأيت بركانًا ثائرًا خلف تجاعيد وجهها الساكنة، للمرة الأولى أراها لا تستمتع بالطعام، تمضغ بضيق كأنها تأكل ترابًا، وكانت محقّة حين قالت لكِ: "الطعام سيء، وأنتِ ترفضين التعلّم"، وبدلَ أن تستقبلي الملاحظة بحب، أنكرتها ملامحكِ، فقالت نوال حين لم ترَ أي استجابة إيجابية منكِ "تعلمي من أمي"، لكن لسانكِ أبى أن يلزم مكانه، فانطلق كالثعبان يخرج سمومه، وأنا لم أعلم -طوال سنين عمري الستين- عن شيء أكثر ضررًا على الإنسان من لسانه، وقد جنى عليكِ لسانكِ عندما نظرتِ إلى نوال، وقلتِ لها "إذا كنتِ أنتِ لم تتعلمي من أمكِ"، فأخرجتِ أمي من سكينتها، وأجبرتها على الرد عليكِ: "هل رأيتَ

بنفسكَ يا نصرُ؟ لسانها طويل، وأرى أن نرجعها لأمها حتى تحسنَ تربيتها"، وبدلًا من أن تصمتي، وتحترمي سنّ المرأة الكبيرة ومقامها، خذلكِ لسانكِ للمرة الثانية، هل تقول المرأة المحترمة لحماتها: "ربتني أمي أفضل مما ربيتِ ابنتكِ"!، كان الصواب مني حين رأيتُ الدماء تتدفق في وجه أمي أن أضربكِ، انهلتُ عليكِ بالضرب، واتخذتُ قرارًا من يومها أني أنا من سيربّيكِ، وليسَ أحدٌ غيري.

ومضت الأيام، وأنتِ صامتة مُغتَمّة، كأنّ هموم الجنّ والإنس تصبّ عندكِ، تُنهين واجباتكِ في البيت كل يوم، ثم تغادرينه إلى بيتِ أهلك، وكلما عدتِ من هناك، ازدادت همومكِ، حتى تحولتِ إلى خرساءَ تمامًا، ماذا أفعل أنا بزوجةٍ خرساء!

قالت أمي ذات يوم: "زوجتكَ تذهب إلى أمها كل يوم، وترمي وردها اليومي من الكلام عندها، فتعود إلينا صامتة"، لم تجيبي، خذلكِ لسانكِ هذه المرة أيضًا، ولكن بالصمت، الا تعلمينَ أن الصمت في بعض المواقف إهانة وقلة احترام! كان لا بد أن أعلّمكِ ذلك أيضًا، استوجبتْ تلكَ الليلة درسًا آخرَ في التربية، ذلك واجبي، أن أقوّمَكِ وأعلمكِ احترام أمي، ومنعتكُ من زيارة أمكِ لأحافظَ على بيتي، ولأسمع صوتكِ الذي كدتُ أنساه.

وبعد ثلاثة أيام، جاءت أمكِ إلينا، يبدو أنها استفقدتكِ بعد أن تعودت على رؤيتكِ كل يوم، ما كان لها أن تتعود على ذلك، بل ما كان لها أن تزوّجكِ إذا كانت تريدكِ أمامها دائمًا، لم تتقبل بعد فكرة أنكِ أصبحتِ جزءًا من بيت آخر، طريقة العيش فيه مختلفة عنها في بيتِ أبيكِ، لهذا البيت رجل مُطاع، وفيه امرأة يجب أن تُعامَل على أنها "ست البيت"، ولا يحق لأمكِ الاعتراض على تقاليد بيتي، لا أظن أني اعترضت يومًا

على معيشة أهلكِ، ولكن أمكِ فعلت، لم تحترم عاداتنا، وأجبرت أمي على الانفعال عليها وطردها، لم أهتمّ بمعرفة تفاصيل الموقف؛ لأني لم أستغربه، فقد كنتُ على يقين أن أمكِ تشبهكِ، أو أنتِ تشبهينها، عرفت هذا من أبي، الذي كان يقول دائمًا "البنت نسخة من أمها"، ولكن من الواضح أن خبرة السنوات أضافت لأمّكِ بعضَ الحكمة التي لم تصلي إليها بعد، فقد قالت لكِ: "امكثي في بيت زوجكِ"، بعد أن قالت لكِ أمي: "إذا خرجتِ من هذا البيت اليوم فلن تعودي إليه أبدًا" لمّا رأتْكِ تنوين الخروج معها.

***

جاءت نوال تركض إلى غرفتي: "الحق أمّك بتلطم في غرفتها"، فجريت إليها، وجدتها متربعة على الأرض، تكرر رفع كفيها من على قدميها وتنهال بهما في حركة بطيئة على وجهها، الذي امتلأ بالدموع السوداء المشبعة بالكحل، تنشج كأنها عصفور مذبوح، صرخت عليها: "أمي، كفى"، "اجلبي الماء يا نوال"، أمسكت يديها لأوقفها، وأسقيتُها الماء، "كفى يا أمي، لقد ربّيتها". هدأت أمي، سألتها:

- لماذا لم تطرديها؟ رأيتك تمنعينها من الخروج مع أمها.

- لا أبكي لأجلها يا بني، بل لأجلك.

- أعرف أنه زواج غير موفق، ولكن هذا لا يجعلك تبكين، لا شيء يستاهل دموعك يمّا.

- كان لستّك جارة لما تشوفك تلفّ وجهها عنك، وتقول "أعوذ بالله"، كانت تسميك "النحس"، في البداية كنت أزعل منها، لكن ما أرد عليها، أحترمها لكبر سنها، ولأجل ستّك، وبعدها تعودت عليها، آه! راح الزمن الي نحترم فيه حماتنا وجيرانها.

- ولماذا تسمّيني النحس؟

- لأنك ولدت في نفس السنة الي صار فيها انفجار رئاسة الوزراء، ومات هزاع المجالي فيه، الله يرحمه.

- الله يرحمه، ويرحمها، أكيد ماتت.

- الله أعلم، بيت سيدك رحلوا من المنطقة مع فلسطينيين كثر رحلوا ورجعوا على المخيم بعد "أيلول الأسود"، وستّك ما شافتها بعدها.

***

مضت الشهور، وقد علمتْكِ دروسي حسن الموازنة بين الصمت والكلام، وأتقنتِ ممارسة الإجابة الكافية، وإن كان كلامكِ قليلًا، ووجهكِ منطفئًا كمن يحضُر عزاءً، والمفارقة أنني لم أره مشرقًا إلا في عزاء حقيقي، موتُ أمي أنارَه، وأظهر إشراقه ما كتمه لسانكِ، بريق عينيكِ قال الكثير يومها، قال إنكِ كنتِ تكرهينها، كيفَ نقلْتِ لأمكِ الخبر؟ هل كنتِ سعيدةً؟

***

جاءتْ أمكِ إلينا معزّية، بل قضت نهارات الأيام الخمسة كلها في بيتنا، كنتُ أعلم أنّها تحتجّ بالعزاء كي تراكِ لأطول فترة ممكنة، نقلتْ لي نوال ما رأته من انفرادكما ببعض لأوقاتٍ طويلة، لكن لم يعد طول لقائكِ بأمكِ مهمًا بالنسبة لي، فقد ماتت سيّدة المنزل. تشجعت أمكِ على تكرار زيارتكِ، ولمّا لم ترَ مني أي معارضة أكثرتْ، وبعدها بأقل من شهر، قضيتِ عندها أربعين يومًا، فترة النفاس التي تبعت ولادة عفاف الصغيرة، ولكن كما قلتُ لكِ، لم يعد هذا مهمًا.

كان يوم ولادة عفاف كئيبًا على الأسرة، لم أتوقع أن يطول انتظاري لتلدي لي فتاةً آخر الأمر، فتاةٌ تلدُ فتاة، فشلتِ حتى في إثبات هيبتي أمام الناس، هل سأحمل هذه البنت وأقول للناس أنا رجل، ووراءي من يسندني! فتاة! كأن همومي التي جلبتِها لي كان ينقصها ابنة، ألا تعرفين أن "هم البنات للممات"! ألم تخبركِ أمّكِ بذلك! بماذا إذًا كانت تحدثكِ؟ لو وصلتْ هذه الابنة إلى بيت زوجها دون أن يلوثنا أي عار - كما لوثنا عار علا- فهذا يكفيني.

كان من الطبيعي حينها ألا أزوركِ في المستشفى، قضيت وقتي مهمومًا أبحث عمن يواسيني، سحبتْني رجلاي إلى بيت رامي دون أن أشعر، لو فكرت لثانية لما ذهبت إليه، فقد كنت أعلم أنه سيزعجني بآرائه "الحداثية"، وهو ما كان فعلًا، استمر يرهقني بأسئلته: "لماذا أنت هنا؟ كيف حال الأم، والجنين؟ لماذا أنت مكدر في يومٍ كهذا؟"، وحين علم باستيائي لقدوم البنت، انفعل:

- مدرس علوم، ولا تعلم أن الرجل هو الذي يحدد جنس المولود!

- لا تخلط بين ما نستخرجه من الكتب لنقوله لطلابنا، وما نحدّث به الناس، لولا الخطة الدراسية اللعينة لما درستهم هذا الكلام الفارغ.

- وما هو الكلام غير الفارغ من وجهة نظرك؟

- إذا طرح المزارع بذوره فحصد محصولًا رديئًا، تكون المشكلة في الأرض لا فيه.

***

كان لا بد من التسريع بحَمل آخر، فربما يكون التالي ولدًا، ولد يمحو آثار الخيبة الأولى، كان هذا بالنسبة إليّ أهم مما قالته الطبيبة عن آثار جانبية تؤثر عليكِ إذا أنجبتِ سريعًا بعد حملكِ الأول، طبيبة جاهلة،

لم تسمع في حياتها عن أمهاتنا اللاتي يرمين ثمارهنّ كل عام كالشجرة، ولا يتعبن، فهل تختلف أرحامهنّ عن أرحام بنات اليوم! لا أعرف ماذا جرى لعمّان التسعينات، تحول كل الشعب إلى رامي.

***

بعد ولادة عفاف بستة شهور، تزوجت نوال، وغادرت إلى بيت زوجها في "صويلح"، ففرغ البيت إلا مني ومنكِ ومن عفاف الصغيرة، لا تنكري فرحتكِ برحيلها، فقد رأيتها وقتها على شفاهك المبتسمة، وأعلم أن سعادتك لم تكن بسبب زواجها، بل لأنها رحلت عن البيت، تركته لكِ وحدكِ بعد أن تركته أمي وغادرت إلى جوار ربها، على الرغم من أنكِ لم تنقلي لي أبدًا رغبتكِ بأن تعيشي في بيتٍ مستقل بلسانكِ، إلا أنكِ قلتِها مرارًا بجوارحكِ الأخرى، الإنسانُ لا يتكلم بلسانه فقط يا سميرة، الأيدي تحكي، والأقدام تحكي، وملامح الوجه تحكي، وأنتِ كنتِ صغيرة لا تتقن إخفاء مشاعرها، لذلك كنت أعرف بماذا تحسين دون أن تتكلمي، لكن هذه المعرفة لم تكن نعمة؛ لأنها كانت تغيظني دون أن أستطيع التصرف، فلا يمكن إعطاؤك درسًا بالاعتماد على ما أحسه فقط.

بدا لي يا سميرة أنكِ تفكرين كما يفكر ذلك الإفرنجي، ثلاثون عامًا عمر زواجنا، ولم أعلم هذه الحقيقة إلا الآن، أستحضر كلامه فأجدُ في انفعالاتكِ وسلوككِ ما يؤيده، قال لي ذات يوم إن الزوجة تحب أن تعيش ملكةً في بيت مستقل، لا ينازعها فيه أحد، ولا يتدخل في شؤونها أحد، فأجبته بأن ذلك يتم حين يكون الزوجُ مثلك.

***

انصرفت سنة غير مهمة في حياتي -بين مولد عفاف، ومجيء جمال إلى الدنيا- لا يعنيني تذكّرها، ولا أقدر عليه إذا عناني، فهي مدة لم أعِشها في البيت، قضيتها بين العمل والمقهى، تلك أماكن أحبها، تشعرني برجولتي، أنا أمشي كالديكِ بينَ تلاميذي الذين يخافونني، أثبتُّ هيبتي، وملأتُ مكاني حين رأيتُ الخوف في عيونهم، في الفصل عندما أدخله فلا أسمع فيه دبيب نملة، وخارجه حين يتجنبونني خوفًا من بطشي، هذه هي الرجولة، وهكذا يجب أن يكون المعلم. أما المقهى فلا تخلو سهراته من رامي، هل تعرفين ماذا يعني لي رامي؟ طبعًا لا تعرفين، ومن أين لكِ أن تعرفي! من وجهة نظركِ -ووجهة نظرِ كثيرين- فرامي بالنسبة لي هو ذلك الصديق الذي يرافقني في أفراحي وأحزاني، وعندما يمتلئ قلبي بالهموم يجرّني إليه، وأول من يجيء ببالي ليشاركني فرحي إذا استشعرته، ولكن هذا غير صحيح، أو غير صحيح تمامًا، أثبتَ رامي كثيرًا أنه رفيق الدرب، هذا جانبٌ واحدٌ فقط من الصواب، ولكن ما لا تعلمينه أني أحب لقاء رامي لأنه يعمّق إحساسي برجولتي، على الرغم من أن نقاشاته تستفزني، وآراءه تنغص علي، إلا أنني في كل مرة أعود فيها إلى البيت بعد لقائي به أقول لنفسي: "الحمدلله على نعمة الرجولة"، لقد كان رامي ذلك النقيض الذي يمنحني الإحساس بالعظمة، فأمتلئ بالهيبة حين أرى لهوه، وأدركُ الحزم فيَّ عندما يظهر تساهله، نعم يا سميرة، رامي هو ذلك الظلام الذي يمنحني الفرصة للتشبّع بالنور المتوقّد بداخلي.

***

أما جمال فهو أول فرحةٍ حقيقيةٍ لي في حياتي، هو الدرع الصلب والوتد الراسخ الذي أثبت به رجولتي أمام الناس، وأقول لهم بفخر إن لدي عزوة، إن لديّ ابنًا ذكرًا أصبح به المنزل مكانًا لا أتحسر فيه على شيء

ينقصني، وصلت رجولتي إلى المنزل عند مجيء جمال. أسميته جمال تيمنًا بالزعيم الخالد "جمال عبد الناصر"، رمز القوة والرجولة، عند وفاته كنتُ طفلًا في العاشرة، وكان بيتنا في "مخيم النصر" حينها، لم نكن قد انتقلنا إلى ماركا الجنوبية بعد، أذكر وقت إعلان موته أن الأعلام السوداء ارتفعت على كل بيت، وغطت صورهُ ونعيُه الجدران، لدرجة أن صور "ياسر عرفات" و"غسان كنفاني" و"وديع حداد"، اختفت، ولم تكوني قد ولدتِ بعد.

-5-

انتهت الأعوام الخمسة التالية من زواجنا دون أن يستحق فيها ذكر أي شيء، تتابعتْ روتينيةً بقصص وأحداث مكررة، كنت كمن يشاهد فيلمًا سينمائيًا معادًا كل يوم، أبطاله زوجةٌ تضحك طول الوقت مع ابنتها، وعندما تراني تصير كالروبوت، لا مشاعر ولا كلام، وطفلٌ يكبر أمامي وأنا أحاول جاهدًا أن أحميه من طوفان تغيّر المفاهيم، كم كان صعبًا أن أربي طفلًا في ذلك الزمن! وبعضُ دروسِ التربية التي كنتِ تجبرينني عليها بطيشكِ وسوءِ تقديركِ. كبرت عفاف وأصبحت في سن المدرسة، وبقدر ما كنت حريصًا على تعليمها القراءة والكتابة، لتتدبر أمورها وأمور أولادها، بقدر ما كنت خائفًا من خروجها إلى الناس، ولولا إجبارية التعليم والتكاليف العالية للتعليم الخاصّ لكنتُ جلبتُ لها مدرسات إلى المنزل، حرصتُ على إرسالها إلى مدرسة حكومية أعرف عنها الصرامة وحفاظها على القيم والعادات، رغم أنها لم تكن المدرسة الأقرب لبيتنا، ولكن مشقة المسافة تهون أمام سلامة التربية.

لحق جمال بأخته إلى عالم الدراسة في العام التالي، ولم يحيرني اختيار المكان المناسب له كما حيرني الاختيار لعفاف، بل كان أسهل بكثير، فالولد إذا أخطأ أو جرب يبقى في النهاية ولدًا، أما البنت فخطؤها يلاحقها ويلاحق أسرتها طول العمر، سجلته في أقرب مدرسة حكومية

إلى بيتنا، أذكر حينها أطول نقاشٍ حصل بيني وبين رامي على تعليم الأولاد، في سهرة من سهرات المقهى، سألني حينها:

- هل أتممت إجراءات تسجيل جمال في المدرسة؟

- نعم.

- في أي مدرسة؟

- مدرسة الشهيد "منصور كريشان".

كنا قد اقتربنا من الأربعين، وحين يقترب الإنسان من الأربعين يصبح السلام الداخلي على رأس أولوياته، فيقل طيشه، ويسكت على الرأي المخالف له، أو يعارضه بهدوء، ثم يندم -بينه وبين نفسه- حتى على إبداء معارضته، الأربعون يا سميرة هو ذلك البحر الساكن الذي ينأى بنفسه عن استقبال الرياح وجهًا لوجه، ليختار لموجه السكون، وهو ما كان فعلًا بيني وبين رامي، فضّلنا الهدوء، ولم نتبادل الشتائم كما كنا نفعل في كل نقاش، ولم نتسلّ باللجوء لاستفزاز بعضنا، بل تحول نقاشنا إلى تبادل وديع لوجهات النظر، رد عليّ رامي:

- لماذا لا تلحقه بمدرسة دولية؟ كما فعلتُ مع أيهم، وربما أصبحا صديقين.

- المدارس الدولية لا تنتجُ أولادًا يشبهوننا، بل تنتج...

وصمتُّ لثوانٍ حين لم أشأ أن أقول "مسوخًا"، وتابعت:

- تنتجُ أبناءً يشبهون ثقافات أخرى، لا أحبُّ لأولادي التشبه بها، أعرفُ أولادًا في مدارس دولية لا يعرفون العربية، تصور ألا يعرف ابني العربية، وأن يحتفل في كل عام بـ"الهالوين".

- ليست كل المدارس الدولية كذلك، فبعضها يتصف بطابع مناسب لثقافتنا.

- إني آسف أني وصلتُ لمرحلة أسمع فيها عن وجود مدارس تتصف بثقافتنا، ينبغي لكل المدارس التي تنتشر في بلدنا أن تشبهنا.

- وما معنى أن تشبهنا؟ ولماذا يشبهنا أبناؤنا؟ الأولى لكل جيل أن يكون مختلفًا عن غيره، أن يصفّي عادات من سبقوه، فيختار منها ما يناسب ظروف زمانه: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

- عليك أن تقول "يختار منها ما فرضته عليه العولمة ليناسب زمان غيره"، كنتُ أظن أن "الانفتاح" هو قمة مصائبنا حتى رأيتُ العولمة!

- لا يعيش الإنسان في عالم خيالي يرسمه في ذهنه.

- ماذا تقصد؟

قاطَعَنا صوتُ رمضان:

- أهلًا بالأساتذة، هات قهوة حلوة للأستاذ نصر، ماذا تريد اليوم يا أستاذ رامي؟

- هاتِ موز بالحليب.

نظر إلي رامي كأنه يريدني أن أذكّره بما وصل إليه النقاش، فاستدركت:

- ماذا تعني بأن الإنسان لا يعيش في عالم خيالي؟

- أعني أنني عندما أريد أن ألحق ابني بمدرسة، لا أفترض وجود مدرسة مثالية، وأبحث عنها، بل أعاين ما هو موجود فعلًا، ثم أختار منه بعد أن أدرس خياراتي جيدًا.

- والموجود هو المدارس الدولية أو الحكومية أو الخاصة أو الوكالة.

- نعم، ولكل منها عيوب ومميزات.

- وما هي عيوب المدارس الحكومية التي جعلتك تبتعد عنها؟

- عيوبها نسخة مصغرة من عيوب ثقافتنا، تحريض على العنف، وإقصاء لرأي الطالب، وتحجيم لمواهبه، وتوسيع لكل الفجوات المجتمعية: فجوات العمر والجنس، بالإضافة إلى أنها منظومة روتينية، يركن فيها المعلم إلى الاعتيادي من التلقين بدلًا من الابتكار، إن مفهوم الوظيفة الحكومية في الأردن هو أن تأخذ راتبك المضمون مقابلَ أن تفعل الأشياء نفسها كل يوم، لا دافع للتطوير، ولا حاجة للتغيير، حتى إن صادفتَ مسؤولًا يقتنع بالتغيير سيقابله عشرات القوى الممانعة: قوانينٌ تحمي الموظف حتى وإن وُجِدَ على رأس وظيفته نائمًا، ونقاباتٌ هاوية تنصر منتسبيها ولا يعنيها بقية فئات الشعب، ومسؤولون منتفعون، وقيادات تخشى أن يصل التغيير إلى مناصبهم، سيعارضك المجتمع نفسه ويتهمك بأنك تهدف إلى تغيير منظومته القيمية، هذه القيم ليست إلا وهمًا صنعه الناس وركنوا إليه، ثم اعتبروه جزءًا من هويتهم، وظنوا أن أي تعديل طفيف فيه من المنكرات التي ينبغي محاربتها، وأنا لا أقصد بالقيم المعاني الأخلاقية، بل أعني التقاليد، طريقة إتمام الأمور.

صمت رامي، ثم تابع:

- هل تعرف أن أقوى ممانع للتغيير هو تلك الثقافة المجتمعية التي تتمسكُ بها؟ نعم، ممانعة التغيير بُعدٌ من أبعاد الثقافة، يرتفع في بلدنا كثيرًا، فيصبح كل شيءٍ جديد مثيرًا للريبة، وكل شيءٍ لا يشبهنا مدعاةً للقلق، ألا ترى أننا لا ننتج المبدعين ولا الفنانين، كيف

سننتجهم إذا كنا كلنا نسخًا مكررةً عن بعضنا، نقصي المختلف، ونقسو عليه حتى يعود إلى "رشده" ويشبهنا.

- أنا يا صديقي لستُ مهتمًا بإنتاج المبدعين في الأردن، ولا بتقييم ثقافتنا، كل ما أريده هو أن أختار مدرسة مناسبة لابني، وصدقني لا يعنيني أن يكون عند ابني رأي وهو في السادسة من عمره، بل يعنيني أن يعطي قيمة للاحتفاظ برأيه لنفسه في حضرة الكبار، أما كلامك عن التلقين والابتكار والدافع فهو كلام دراسات نظرية -وكلها غربية بالمناسبة- لا يناسب ثقافتنا، المهم في النهاية أن يحصل الطالب على المعلومة، وأن يظهر الاحترام لمعلمه.

تنهدت، وأعرضت بوجهي عن رامي، فرأيت رمضان أمامي، طلبت منه ماء، ثم تابعت كلامي:

- ما تراه أنت مميزات أراه مساوئ، هذا الفرق بيني وبينك، مع أنك تتجنب الحديث عن تكاليف الدراسة في هذا النوع من المدارس، ألا تراه مرتفعًا؟

- طبعًا، رسوم الدراسة فيها عالية، لكن كما قلتُ لك، لا يوجد نوع مثالي لأبحث عنه، بالنسبة إلي تهون المصاريف في مقابل التعليم الحقيقي.

- وبالنسبة إلي يكفيني مصاريف الجامعات المهولة، بالكاد سأستطيع تأمينها لأولادي عندما يكبرون.

غادر رامي المقهى قبل أن يوضح آراءه في المدارس الأخرى، اعتذر بأن لديه ارتباطات عائلية، لم يكن محتاجًا لأن يبرر، فقد تعودت عليه بعد أن تزوج ينظر كثيرًا إلى ساعته بدءًا من التاسعة، ثم يبدأ بالتململ، وبمحاولة إنهاء كل المواضيع، ليغادر قبل العاشرة، وحين أسخر منه

يرد بأنه "ربّ أسرة عليه واجبات كما له حقوق"، ربما أظهر حجّته ليلتها لأنه جلس حتى الحادية عشرة والنصف.

وهذا ما كان بيني وبين رامي بخصوص تعليم جمال، ولا أرى فيه ما يسيء إليكِ، ويدفعكِ لقول ما قلتِه يا سميرة، وما زلتُ حائرًا أبحث عن ذلك السبب، فإذا كان قد وقع في نفسكِ شيءٌ بخصوص تعليم الأولاد وقتها، فيجب أن أخبرك بوصية أبي لي عام 1977، قبل وفاته بعام، كنت حينها قد خرجتُ من السجن بعد أن أمضيتُ فيه ثلاثة أعوام لأنني قتلتُ علا، أثنى عليّ أبي عند عودتي إلى المنزل، وقال لي: "إيّاك أن تندم فقد فعلت الصواب، وإيّاك أن تُجاري الزمن أو المكان"، كان غسل العار بالنسبة له أهم من حياة ابنته، هكذا يكون الرجال يا سميرة، أبي لم يجارِ الزمن عندما أثنى عليّ، ولم يجارِ حياة المخيم بعد أن لجأ إليه في 1948 من قرية "ذكرين"، فمات في فراشه مهمومًا، أنا أيضًا لم أتقبل المخيم حين تغير، كنتُ أشعر بالعزة عندما أرى صور الرموز تزداد على جدرانه، رأيتُ "محمود درويش"، و"محمد الدرة"، و"أحمد ياسين"، و"إيمان حجو"، و"يحيى عياش"، و"جورج حبش"، و"أبو عرب"، و"حنظلة"، وعندما زرته في 2018، ورأيتُ الزهور تملأُ جدرانه، أخذتُ على نفسي عهدًا بأن تكون الزيارة الأخيرة؛ لإن المخيم لا ينبغي له أن يعرف الزهور إلا أكاليلَ على قبور الشهداء، إذا فرح المخيم يا سميرة ماتت القضية.

***

أنهى جمال سنته الأولى في المدرسة بتفوق، تعلم أساسيات القراءة والكتابة والحساب، وحصل على شهادة تقدير تفيد بأنه الأول على طلاب صفه، رأيتكِ تبكين حين أعطاكِ الشهادة، لا أدري هل شعرتِ

بالفرح أم بالفخر؟ أنا شعرتُ بكليهما، على الرغم من أني لم أبكِ مثلما فعلتِ، فالرجال لا يبكون. أخذتُ الشهادة لأريها لرامي، ليس بدافعٍ من ذلك الإحساس المزدوج بالفرح والفخر، بل بسبب الطمأنينة التي امتلأتُ بها، شعورٌ بالسكينة تسرب إلى قلبي حين رأيتُ أفكاري ومبادئي تثبتُ صحتها، نعم، فقد كانت تلك الشهادة دليلًا على أن تعليم الأطفال لا يحتاج إلى أمّ جامعية، حملتُ الشهادة إلى رامي وفي عينيّ شهادة أخرى تثبت فشل فرضياته وآرائه أمام مبادئي وقناعاتي.

-6-

ومضت سنتان برتابة وملل، لا مسرات ولا مصائب، ولا حتى أي تغيير بسيط على روتين اليوم، الأحداث مُعادة، كأن حياتنا آلة تقوم بالأعمال نفسها بشكل تلقائي منتظم، جمال وعفاف متفوقان في دراستهما، وأنا أنهي عملي في الثالثة، وأنام بعدها لساعتين، ثم أتناول الغداء، وأذهب إلى المقهى لأجالس رامي، حتى أعود في العاشرة إلى البيت، وأنتِ بين أعمالكِ المنزلية، وزيارة أمكِ وجاراتكِ، وتحضير دروس الأولاد، استمر هذا الوضع حتى الأول من فبراير 2000، الذي قضيناه في غرفة العمليات في قسم الولادة التابع لمستشفى "البشير"، زرناه في منتصف الليل، ولم أخرج منه إلا بعد ثلاث ساعات، بعد أن هنأتني الطبيبة بقدوم ابني الجديد، وغادرتُ لأنهي إجراءات تسجيله في "الأحوال المدنية"، ولحسن الحظ فقد كان الوقت فجرًا، لذلك لم أقف طويلًا على طابور "سرفيس" مجمع "رغدان"، فالناس يبدأون بالمجيء إلى المستشفى في هذا الوقت، أما المغادرون منه فليسوا إلا صدفة من صدف الطبيعة، لا تزيد أعدادهم عن عدد الأيام التي رضي الله فيها عن "بني إسرائيل"، احتجتُ أقلّ من ربع ساعة لأكون في المجمع، فالمسافة قريبة والشوارع فارغة، عبرت المنازل النائمة بسرعة وأنا أفكر في المولود الجديد "محمد".

نزلت من السرفيس، وكانت الساعة تقترب من السادسة، وموظفو الأحوال المدنية -والحكومة عمومًا- يبدأون عملهم في الثامنة، فقررت

الإفطار، وتوجهت إلى مطعم "أنوار مكة" بدافع من الحنين، كان مكاني المفضل للإفطار -وأحيانا الغداء- في سنوات الجامعة، وحين وصلت إلى رصيف المشاة -بعد أن تجاوزت كل المحال والسيارات داخل المجمع- وقفت قليلًا لأعبر الشارع، مر من أمامي شاب وفتاة، ظننتهما سياحًا أجانب قادمين من "الساحة الهاشمية" أو "المدرج الروماني"؛ لأن هيئتهما لم تكن أردنية، فالشاب شعره طويل مربوط بمشبك، ويرتدي بنطالًا ساقطًا مهددًا بالوقوع في أي لحظة، وقلادة طويلة تصل إلى منتصف صدره، لمحت عددًا من الأساور تلمع في يديه، والفتاة ترتدي بنطالَ جينز ضيقًا، وبلوزة قصيرة لم أعرف أولها من آخرها، ولكنهما تحدثا، نطقا حروفًا عربية بلهجتنا، تخللها بعض الكلمات الإنجليزية المشوهة، أحسست بالأسى والضيق، ولم أستطع التوقف عن ملاحقتهما بعينيّ حتى دخلا "ماكدونالدز"، لم أعرف حينها ما هذا الماكدونالدز، فقد كان جديدًا هنا، وربما جديدًا على عمّان كلها، وضعت يدي على عيني لدقيقتين، ثم قررت أن أعود إلى المجمع، رجعت ملهوفًا كأني أريد أن أطمئن عليه، لا أحب تغيير الهوية يا سميرة، دخلت المجمع بخطى أقرب إلى الركض، وحين سمعت صوت "جورج وسوف"، وأغاني ألبومه الأخير "طبيب جراح" تضج في المجمع، شعرت ببعض الطمأنينة، تحركت نحو موقف الباصات أسفل الدرج، ونظرت إلى يساري كأني أتأكد من وجود "منتخب العصير"، و"رنّوش"، وابتسمت حين رأيت "لولي والرازم"، حتى أني شعرت بالنشوة، حين سمعت "كنترول" باص الجامعة الأردنية يصرخ "الجامعة، الجامعة، آخر كرسيين"، ابتسمت للحظة لم تطل، أفسدها عليّ صوت ينطلق من أحد محلات الكاسيتات " بدي دوب، قلي قلي بجنون بحبك أنا مجنون، ما بنسى حبك يوم"، المجمع يتغير

يا سميرة، والناس تتغير، عمان كلها تتغير، حتى لو كان التغير بطيئًا، لكنه مزعج، إلى أين تسير عمان؟ أليس في حياتنا شيء ثابت! ثابت، سأسمي المولود ثابت.

أعلم أنكِ لم تحبّي الاسم؛ لأنكِ كنتِ تنادينه محمد طوال الأعوام اللاحقة، هل تكرهينني لهذا؟ لا أظن أنه من سليم التفكير أن أعيش معكِ ثلاثين عامًا كاملة، وتكرهينني لأنني غيرت اسم الطفل!

***

أبي كان منبعًا متدفقًا من منابع الحكمة، أستاذًا في مدرسة الحياة، عباراته الجاهزة التي كان ينير بها بصيرتي قصرتِ علي المشوار نحو تعلم الرأي السديد، وعلمتني كيف أفهم الدنيا، متى أحاربها، ومتى أسكن إليها، قال لي كثيرًا: "احذر يا بني من الأيام إذا هدأت"، وكان محقًا كالعادة، فسكون العامين السابقين كان آخر هدنة بيني وبين الأيام، لم أعرف الراحة بعدها، انقلبت الدنيا من حولي، عشتُ أيامًا مليئة بالأسى، أحداثها غير مستقرة لدرجةٍ كنتُ أنتظرُ فيها انتهاء اليوم حتى أعرف ما سيأتي بعده، فالشارع العربي يغلي، انتفضت فلسطين انتفاضتها الثانية في نهايات 2000، وانتفضت شقيقاتها العربية والإسلامية، عمت المظاهرات الرافضة للوجود الإسرائيلي. مدنَ وقرى ومخيمات الأردن ولبنان وسوريا ومصر وتركيا، خرجنا نهتف ضد قتل إخوتنا، واستحضرنا الشهداء والقادة ليهتفوا معنا "دلال المغربي، القسام، أبو جهاد، شهداء سجن عكا، يحيى عياش، علي حسن سلامة"، حتى صلاح الدين نادیناه ليرى حالنا، كانت أوقاتًا عصيبة كانت فلسطين خلالها تزفّ عشرات الشهداء كل يوم، كيف لرجل مثلي أن ينام مطمئنًا حين يرى طفلًا يستشهد في أحضان أبيه، أو رضيعة

غادرت الدنيا لتتعلم "الجلوس" في الجنة! أما بالنسبة إليكِ أنت فقد كانت الأيام متشابهة، لم يتغير فيها شيء سوى وجود ثابت.

هل غضبتِ لأني لم أحضر عزاءَ أمكِ في 2002؟ كنت مشغولًا بعزاءٍ آخر، جلست خلف شاشة التلفاز أواسي أسَر شهداء "جنين"، رحت لأطيّب خاطرهم فوجدتهم فرحين، يجهزون أبناءهم للجنة بالحنة على أياديهم كما يُزَفّ العريس إلى عروسه، أدركتُ يا سميرة أن الموت لعبة، وجهة نظر، الموت بمفهومنا نهاية الحياة، لكنه عند الفلسطينيين دماء تروي ترابهم المقدس، ذاكرة من البطولات تُصنَع لتتخلد في وجدان أجيالهم القادمة، الموت عند الفلسطينيين حياة للقضية.

لم أعد قادرًا على تدريس العلوم في المدرسة، أحسستُ أن حديثي للطلاب عن أي شيء سوى فلسطين خيانة، في زمن الحرب يصبح التعليم رفاهية ومضيعة للوقت، فأنشأت مقرري الجديد، وطالبت الطلاب بحفظ تاريخ فلسطين منذ نشأة الكنعانيين حتى اليوم، وكنتُ أسمّع "سورة الإسراء" كاملة لطالبين كل يوم، وحين راجعني المدير وطالبني بالالتزام بالمقررات الدراسية، طردته من الفصل، فالأولى لهذا الجيل أن يعرف القضية من أن يعرف نشأة البراكين، وطبقات الأرض، وأنواع الزواحف، والأولى لمعلّمي جيلنا أن يهتموا بتنشئة الطلاب وتربيتهم على ما تربوا هم عليه، فلا نسمح للعالم الحديث أن يقيء بيننا شبابًا لا يشبهوننا، ولا ينشغلون بقضايانا، هل تعلمين كيف تربى جيلنا يا سميرة؟

كنا حين يولد الطفل منا، ينادي أبوه في أذنه اليمنى بالأذان، ويهتف في اليسرى "فلسطين"، ثم نكبر في المخيم، والمخيم يا سميرة وطنٌ صغير، فيه لاجئون من كل قرى فلسطين، في المخيم نبتاع الخبز من

"صرفند"، والحمص من "حلحول"، والدجاج من "جالا"، والبرتقال من "عجّور"، والطماطم من "بيت نبالا". كنا ندخل المدرسة ونرسم الخريطة قبل أن نرسم الحروف، في حصة التاريخ كان أهم درس أن "أريحا" أقدم مدينة في العالم، وفي حصة الدين أن -الرسول صلى الله عليه وسلم- عرج من القدس، وفي حصة اللغة العربية، درسنا الفاء، واللام، والسين، والطاء، والياء، والنون، قبل أي شيء، كانت الأرض بالنسبة إلينا أهم من التعليم.

في 1967 جاء المدرس إلينا، وأخبرنا أن فلسطين قد صغُرت، وأن المخيم قد كبر.

***

وفي عام 2003، في وسط أحداث الانتفاضة الفلسطينية، أصبح لدينا قضية أخرى: العراق، والمفارقة يا سميرة أن المتسبب الرئيس في القضيتين واحد (أمريكا وبريطانيا)، سادة التحضر والانفتاح، وسادة تلفيق الأدلة، وسادة تخريب الدول المستقرة، مضت السنة كابوسًا على العراقيين، وعلينا، وانتهت بأسوأ نهاية، خراب العراق، واعتقال صدام حسين.

وحين استقبلتنا 2004 بابننا الجديد، لم يكن غريبًا أن أسميه باسمه المركب صدام-حسين، فصدام وحده غير كافٍ، هناك الآلاف من صدام، ولكن صدام-حسين واحد، ينبغي على من يسمع اسم ابني أن يستحضر المهيب الركن، الأسد عزيز الجانب. 2004 التي أفرحتكِ بولادة ابنكِ الجديد هي نفسها التي أحزنتني لوفاة قادة النضال، استشهد أحمد ياسين، والرنتيسي، وحوصر ياسر عرفات حتى استشهد، ثم انتهت الانتفاضة الفلسطينية في 2005، كل هذا أعيشه

وأنتِ تجاملين نساء الحارة عند ولادةٍ جديدة، وتواسيهنّ حين يفقدنَ عزيزًا.

-7-

يحيطني ظلام شديد، لا نور حولي أبدًا، حتى جسدي لا أتمكن من رؤيته، لم أجرب في حياتي عتمةً مثل هذه، ولا أعلم إلى متى سأبقى فيها، كأن النجوم هربت من السماء، حريّ بها في يوم مثل هذا أن تهرب! هل يجب عليّ التأقلم مع هذا السواد حولي كما تأقلمتُ مع الحديث معكِ؟ لا أعرف، في هذه اللحظة لا أعرف إلا شيئًا واحدًا، أن التأقلم هو أسوأ مفهوم صنعته البشرية، لماذا يتأقلمُ الإنسان؟ أرض الله واسعة، ولا بد أن فيها مكانًا يناسبه، يرضيه كما هو، ليبحث عنه ويستوطنه، فلا يحتاج أن يغير من جلده -كما تفعل الحرباء- ليعيش في مكان غير مناسب له.

آه! لنرجع إلى حديثنا، كبرت عفاف، وحان الوقت الذي يجب فيه أن تلبس الحجاب، فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، الحجابُ فرضٌ عليها، بل فرض على من هنّ أصغر منها، وأراها تأخرت في ارتدائه، وأنا معذور في انشغالي عنها بسبب الأحداث السياسية عنها، ولكن ماذا شغَلكِ أنتِ عن استعجالها! تأخُرنا هو الذي جعلها ترفض تقبله في بداية الأمر، فاعتبرته غريبًا عليها، تغير غير مألوف في شكلها، أجبرني هذا على إعطائها درسًا جديدًا من دروس التربية، في ظاهره ضرب، ولكنه طريقة من طرق الإقناع التي ورثناها عن أهلنا كعادات، وكنت مقتنعًا بها تمام الاقتناع، أطبّقها في بيتي، وفي وظيفتي، فأنا لن أنزل لمستوى الأطفال وأجالسهم لأقنعهم بأساسيات دينهم وحياتهم، كما كان يريد مني

رامي أن أفعل، أرادني أن أكلمها، وأحبّبها في الحجاب، ثم أخضع لاقتناعها فيه أو رفضها له، ياللذل والعار! أجعل ابنتي تختار بين أن تتحجّب أو ترفض، لم تكن وجهة نظر رامي غريبة على أية حال، فكل آرائه تدعو للمساواة بين الأعمار، وبين الجنسين، ولكن ما يؤمن به لا يصحّ تطبيقه عندي، في بيتي؛ الصغير يسمع للكبير، والمرأة تسير خلف الرجل، وكلنا محكومون بتقاليد مجتمعنا، وبأحكام ديننا.

نسيتُ أن أخبركِ أن رامي أبدى اعتراضه على أسماء أولادي، فمن وجهة نظره؛ جمال كان بوقًا إعلاميًا! وصدام حسين دكتاتورًا! كان يرى أن أسماءهم تلك بمثابة اختيار قدوات غير مناسبة لهم، قال إني "أوجّههم بشكل لا شعوري إلى اكتساب صفات إذا رضي عنها المجتمع اليوم سيحاكمها غدًا". تبًا له وللمجتمع، وللغد إذا ماتت فيه الرموز! أتمنى في قرارة نفسي ألا تكوني قد شاركتِه آراءه، هل لديك آراء سياسية أصلًا يا سميرة! جمال كان تلك الشخصية التي تتحدث بلا خوف، وتعلي شأن عزة النفس، وصدام كان ذلك الرجل الذي يملأ قلب محدثه بالخوف حين ينظر في عينيه، تلك هي الهيبة، التي لا تعني أمثال رامي، ولا يقيمون لها أي وزن.

بالتأكيد لا تعلمين شيئًا عن حياة رامي، فلم يسبق أن ذكرتُ منها أي تفاصيل أمامك، سأعلمك كيف نشأ رامي، لتدركي أنه لا يشبهنا، ليس أنا وأنتِ فقط، بل معظم الأردنيين، هو الغريب يا سميرة عن شعبنا، وليس أنا، فكيف يتشابه تفكيرك معه! من أين أتى هذا التشابه المُفترَض!

ولد محمد -جد رامي- في مطلع العقد الأول من القرن العشرين في نابلس، هل تعرفين ماذا يعني أن يولد طفل في نابلس؟ يعني أن

يعتاد تقاليد أقوامٍ كثر، حتى يتقبل بعدها أي اختلاف، يفتح "السُّكرة" أو "المفتاح" [1] عيونهم وأهلهم يحتفلون بهم بالزغاريد والكراوية والقلوبات [2]، ويكبرون في الأزقة العثمانية، يتعودون على رؤية التماثيل والأضرحة الرومانية في "مقبرة الملوك"، يصلّون مع أهلهم في "المسجد الصلاحي" -مسجد صلاح الدين الأيوبي- ترينهم يحتفلون برمضان وعيد "النيروز"، ويُحيون موسم النبي صالح والنبي موسى، وأيضًا يحتفلون بالمولد النبوي الشريف.

نحن مختلفون عنهم يا سميرة، الفلاحون في ذلك الزمن لا يعرفون أنبياءً إلا محمد، التماثيل بالنسبة إليهم أصنام، والرومان نوع من أنواع الجبنة، نحن نقضي أعمارنا بين الفؤوس والأسمدة والحيوانات الداجنة، ونضمن مستقبلنا بـ"الدونم"، بينما هم مهتمون بالتعليم والتجارة والصناعة، لما كانت رفاهيتنا الخروج إلى البيارات، والجلوس بين الحشائش، كانوا هم يذهبون إلى السينما، ويرتادون المطاعم، الفلاح منا لا يعرف كيف يكتب اسمه، وهواؤنا المليء بروث الأبقار لا يصنع الشعراء كهواء نابلس، لما صنع كبارهم هويتهم، قرنوها بالكنافة والصابون، الكنافة والصابون رفاهيّات لدينا أهل القرى، ربما لا يعرفها العمدة نفسه.

سافر محمد إلى دمشق لإكمال دراسته الجامعية، لم يأخذ معه شيئًا من بيته، فالسفر من نابلس إلى دمشق حينها لم يكن غربة، كانت نابلس هي "دمشق الصغرى"، ولم تكن صغرى لأن مكانتها أقل، بل لأن التاريخ أنجبها بعد شقيقتها الكبرى، ولا ذنب لنابلس بما يفرضه التاريخ!

---

[1] كانت عادة أهل نابلس حين يسألون عن جنس الجنين أن يقولوا: "سكرة والا مفتاح؟"

[2] يطلقها أهل نابلس على المكسرات، مثل: الفستق الحلبي واللوز والصنوبر والبندق.

درس محمد الطب في جامعة دمشق، وهناك تعرف على زوجته سارة -جدة رامي- التي قدِمت من بغداد، تصوري أن تكمل امرأة دراستها الجامعية في الربع الأول من القرن العشرين، حتى صديقتها اللاحقة - فدوى طوقان- كانت تغبطها لهذا الإنجاز، أما نحن فما زلنا حتى الآن لا ندري أي إنجاز في أن تُتم المرأة تعليمها. كانوا يتزوجون من أي مكان في الدنيا، أعرف نابلسيين تزوجوا من أوروبيات، نحن هنا لا نتزوج إلا من قريتنا، نستر بنات عمّنا.

أصبح محمد طبيبًا معروفًا، وتنقل بين نابلس، ودمشق، وبغداد، وبيروت، والقاهرة، وباريس، وكُتِبَ له طول العمر، فأنجب العديد من الأولاد، من بينهم فيصل- أبو رامي. قال رامي مرة إن أباه رأى نور الدنيا في عام الزلزال، على الأرجح أنه يقصد زلزال 1927، كبر فيصل وحذا حذو أبيه في التعليم، فسافر إلى بيروت، في منتصف الخمسينات، ودرس التجارة في الجامعة الأمريكية هناك، ثم عاد وتزوج من مريم - أم رامي- وساعده أبوه الذي أصبح ثريًا وصاحب نفوذ على إنشاء تجارته الخاصة، حتى كثر مالُه، وأصبح من أهم التجار في نابلس، وحين غادر فلسطين بعد النكسة -وكان رامي طفلًا- لم يقم في مخيم مثلنا، بل نزل في فندق "فيلادلفيا"، لا شك يا سميرة أن هناك فرقًا كبيرًا بين من ينشأ وفي جيبه "بطاقة الفيزا" ومن ينشأ وفي جيبه "كرت المُؤَن".

إذا كانت هذه حياة رامي، فكيف تنزعجين من نفس الأشياء التي ينزعج منها؟ عندما كنا نجلس على المقهى، ويقول لنا رمضان "نكتة"، كنت أضحك، بينما رامي لم يكن يتأثر، إنه لا يفهم مزاحَنا ولا غضبنا، لا يفهم انفعالاتنا بالشكل الصحيح، فإذا كنت مخطئًا في

افتراضي -بأن ما كان يجادلني فيه رامي هو نفسه الذي دعاكِ لأن تقولي ما قلته اليوم- فأين هو الصواب؟ لماذا قلتِ ذلك يا سميرة!

***

بدأ ثابت مسيرته التعليمية في 2006، ذهب إلى المدرسة نفسها التي يذهب إليها جمال، والتي لحقهم إليها صدام بعد أربع سنوات، أثبتت لنا مدرسة الشهيد كريشان أنها ممتازة، فجمال تفوق فيها، وملأ لنا البيت بشهادات التقدير، وشارك في المسابقات التعليمية المختلفة على مستوى عمان، ومثّل المحافظة مرتين في مسابقة الرياضيات. جمال يملأني بالطمأنينة والفخر، اللذين ازدادا حين رأيته مع أخيه يذهبان معًا إلى المدرسة، أيديهم بأيدي بعضهما، أول تجربة لجمال يكون فيها مسؤولًا عن شقيقه الأصغر، تلك هي الأخوّة، أن تسير مطمئنًا ومتأكدًا أن يدًا ستنتشلك إذا جارت عليك الظروف، إحساس فقدته، ورأيته يومها، ولا شك أن ثابت كان سعيدًا بصحبه أخيه الكبير، الإنسان بلا كبير تائه ضائع، يتقاذفه الناس كالكرة، يلهون بها كما يشاؤون، ثم يضعونها جانبًا.

-8-

لم أذهب لزيارة أهلك في عيد الأضحى عام 2006، إذا كان هذا ما يستفزكِ فليس لكِ حقّ؛ لأني لم أدخل أي بيت في ذلك العيد، حتى بيوت أهلي، لم أزر نوال نفسها، فقد كان عيدًا كئيبًا، أعدِم صدام حسين في صباح أول يوم فيه، العيد فرح، فمن أين سيأتي الفرح! وبأي وجه أقابل الناس وأهنئهم! على ماذا كنت سأهنئهم! على خيبتهم! أعدم صدام في يوم العيد والرسالة واضحة، أوضح من نذالة أمريكا، اللعنة على أمريكا يا سميرة! اللعنة على أمريكا!

***

في الوقت الذي كانت فيه أسرتنا تكبر، ويزداد أبناؤنا ثقافة وعلمًا، كان العالم يصغر، ويزداد جهلا وعشوائية، تقلص العالم لدرجةٍ مريبة بعد ظهور "الفيسبوك"، أصبح بإمكان أي شخص -من موقعه- أن يدخل أي بيت، ويتعرف على أفراده، أن يناقشهم في تفاصيل معيشتهم، وأن يبدي إعجابه بغدائهم، أو سخطه على اختيارهم لاسم مولودهم، أمست صور الرجال والنساء مشاعًا لكل من "هبّ ودبّ"، ووجد المراهقون لأنفسهم ساحات يُخرجون فيها مكبوتاتهم النفسية والجنسية، تصوري أن يبدي الرجال إعجابهم بملابس النساء على مرأى من أزواجهن، أو أهل بيتهنّ، أي رجال أصبحنا! كانت أمي -رحمها الله- تخفي ألبومات صورها حتى لا يرى رجال البيت نساءً غيرَ محارمهم. كانت الخصوصية من المقدسات، ربما تموت رجال إذا

اعتدت عليها، أو حاولت تجاوزها، كنا نعلم أنه إذا اختُرِقَت الخصوصية، هُدِمَت البيوت، وكنا ندرك أن أصدق المشاعر هي التي لا يباح بها في العلن، إذا خرج الشيء إلى الناس فقدَ مصداقيته، وأصبح غرضه المفاخرة، لا التعبير.

حين رأيت الفيسبوك لأول مرة علم 2007، أقسمت أن "التوجيهي" [1] هي آخر سنة دراسية لعفاف، تجلس بعدها في البيت، بانتظار عريسها، ويكفيها ويكفيني ما تعلمَته إلى الآن.

***

رأيتكِ تكثرين من رفض العرسان المتقدمين لعفاف قبل حتى أن تريهم، سمعتُ منكِ أعذارًا كثيرة: "العريس صغير، العريس كبير، أمه قوية، أهله غير محترمين، يسكن مع أهله في العمارة نفسها ..."، فعلمتُ أنك تماطلين لتأجيل زواجها، ثم سمعت أنها طرف في هذه المماطلة، أنتِ وابنتكِ تقرران وتحتالان لتنفيذ قراراتكما، كان لا بد من درس من دروس التربية لكِ ولها، وهو ما كان فعلًا، وقد كان الدرس مجديًا كالعادة، فقد رأيت العرسان بعده يدخلون إلى بيتنا، وأصبح الكلام الآن بين الرجال، والكلام حين يكون بين الرجال تنتهي الأمور بسرعة، بلا مماطلة، ولا أعذار.

وبالفعل تزوجت عفاف في 2008، اخترت لها رجلًا يسترها، ويقوّمها، أعلم أنكِ كنت معترضة على الزواج، وجاء اعتراضكِ على لسان عفاف حين قالت عنه: "غليظ وكِشِر"، عجيب أمركما! هل يكون الرجل إلا غليظًا وجامدًا، على أية حال فقد تم الزواج، كان زواجًا عاديًا، شأنها شأن كل البنات، بمهرٍ بلغ 2500 دينار، ومؤخر 3000 دينار، أقام

[1] التوجيهي هو امتحان الثانوية العامة في الأردن.

العريس لها فرحًا لائقًا في صالة عادية، فلم أظلمها، ولم أسئ الاختيار لها، وأثبت أحمد -زوجها- خلال السنوات الماضية أنه على خلق طيب، لم نسمع بمشاكل في أسرته إلا ما يحصل بين كل الأزواج من خلافات عادية، فكان زواجًا ناجحًا، على الأقل بمفهومي أنا عن الزواج، الاستقرار والإنجاب. وأقول بمفهومي أنا لأني عرفت أن هناك مفهومًا آخر للزواج عندما كنت أناقش رامي، الذي كان يرى أن هناك معيارًا واحدًا فقط للزواج الناجح، وهو: "أن تسأل الطرفين عن رضاهما عن الزواج، فإذا أجابا بالرضا، وعدم الندم، فهو ناجح"، وهذا بالنسبة لي بالطبع كلام فارغ، لا معنى له ولا قيمة، فلا أتخيل نفسي أسأل امرأة عن رضاها عن زوجها؛ لأنها إذا أجابت بالنفي فهي حتمًا قلّة أصل منها.

***

أصبحت جَدًّا في 2009، أنجبت عفاف ولدًا، فعلتْ ما عجزتِ عنه في ولادتكِ الأولى، والغريب في الأمر أنهم أسموه "نصر"، على اسمي، لا أعلم إن كانت عفاف بذلك تحبني، أم تتقرب مني، هل أحسَّتْ أنني كنت أريدها صبيًا يرضيني، فجلبت لي الصبي لأجل ذلك؟ لا أعرف السبب الحقيقي وراء التسمية، لكني أذكر أنني احتضنتها لأول مرة في حياتي.

***

نجح جمال في التوجيهي في 2010، حصل على معدل 96.3، كان معدلًا عاليًا، لكنه لم يؤهله لدراسة الطب، كما شئتُ له، احترت حينها فيما يتوجب فعله، هل أرضى بما اختاره له "القبول الموحّد"، هندسة مدنية في "الجامعة الهاشمية"، أم أرسله إلى إحدى الجامعات في الخارج لاستكمال دراسة الطب، كان قرارًا محيرًا، لكنني في النهاية

اخترت الثانية، أتممت له أوراقه الخاصة بدراسة الطب في إحدى جامعات أوكرانيا، أعلم أنكِ لم تكوني راضية عن سفر ابنك، كنتِ تعتبرينه صغيرًا، لكن جمال كان رجلًا حقيقيًا، لم أخفْ عليه من الغربة، ولا الوحدة، وكان لقب "الدكتور" مغريًا أكثر من قلقك غير المبرر.

لطالما كان جمال متفوقًا في دراسته، إذا لم يستحق هو أن يكون دكتورًا فلا أحد في الأردن يستحق، قلت لنفسي حينها إن السنوات تجري كطرفة العين، لا بأس بقليل من الصبر حتى يعود بالشهادة، ونفتخر به كلنا، وننسى سفره، وبعده عنا، حتى هو سينسى غربته ولياليه التي سيقضيها وحيدًا.

وبالفعل عاد جمال دكتورًا في 2017، وحصل على وظيفة حكومية سريعًا، لو كان درس الهندسة أو سواها لبقي طلبه في "ديوان الخدمة" سنوات لا يعلمها إلا الله، فنحن بسطاء من طبقة اجتماعية عادية، لا واسطة لدينا ولا معارف، فكيف سيعين في الحكومة! اسألي جاراتكِ عن طلبات أبنائهم في ديوان الخدمة، ألا تترددين على أم حسن! بالتأكيد تعرفين أن ابنها يحمل الماجستير في المحاسبة منذ أربعة عشر عامًا، وطلبه في الديوان يتأخر بدلًا من أن يتقدم. كنتُ محقًا كالعادة، وكانت نتيجة قراري شهادة مرموقة، ومكانة اجتماعية، ووظيفة مضمونة.

-9-

يستمرّ الشباب بالانحدار على صفحات الفيسبوك، ليت الأمور تتوقف عند انعدام الخصوصية وجنون التعارف! ظنّ المراهقون أن تجاربهم في الحياة مكتملة، فدأبوا على تقديم نصائحهم للآخرين، وتفصيل معاناتهم وخبراتهم. وصلت الفوضى إلى العلوم والفنون والسياسة، وأخذ مبتدئو العلم يُدلون بدلائهم في الاقتصاد وعلوم الاجتماع والدين، بل أنشأوا علومًا جديدة أيضًا، ووصلنا إلى مرحلة سيئة من الوهم، كثُر الكتاب والأدباء، وامتلأت صفحات الفيسبوك بالمقالات الركيكة، والقصائد المبتذلة، والعبارات التي تتبرأ منها علوم اللغة كلها، وليس أعجب من ذلك الامتلاء إلا حجم الانتشار! الناس صدقت أن هذا هو الأدب، أحيانًا أقول لنفسي إن هذا ليس غريبًا، فمرور متصفحٍ على فقرة باستخدام التلفون أسهل بكثير من قراءةِ قصيدة من المُعلّقات أو رواية، خصوصًا إذا كان هذا المرور يعطي فرصة له أن يعلق أو ينتقد، تلك ساحة الثقافة الزائفة، وميدان الأنا المتضخم الكاذب، كنا مجتمعًا جاهلًا، ولم يكن هذا عيبًا أو نقصًا فينا، فكل المجتمعات -إذا جاز التعبير- جاهلة، المدرّسون هم أكثر من يعلمون ذلك، عندما يدخل المدرّس الفصل يعلم أن طالبين أو ثلاثة متفوقون، ومثلهم خائبون، أما باقي الطلاب فعاديون، والفصل عينة عشوائية من المجتمع، ينطبق عليه -تقريبًا- ما ينطبق على كل الناس، ولكن الجهل كان متواريًا لا يظهر، ما إن يرفع رأسه حتى تضربه هراوات العلم الحقيقي،

فلا تقوم له قائمة بعدها، فاحتضن الفيسبوك ذلك الجهل كأنه أمه الحنون، التي لا تعرف التفريق بين أولادها حين تقدمهم إلى الناس. توهُّم العلم خطير جدًا يا سميرة، تزداد خطورته حين يظهر إلى الناس، وهو ما أتاحته وسائل التواصل الاجتماعي.

وفي عام 2011، أحسسنا بالحجم الحقيقي للمصيبة التي جلبها إلينا الفيسبوك، حين وصلت أياديه إلى السياسة، تصوري أن تسقط أربعة أنظمة عربية في عام واحد، ثم تتبعها سلسلة من الاحتجاجات والانقلابات والحروب الأهلية، في أكثر من خمس عشرة دولة عربية أخرى، لو قلت لأحدٍ قبلها بخمس سنوات أن نظامًا عربيًا واحدًا على وشك السقوط، لاعتبرها نكتة سمجة لا تستحق عناء الرد، فهل تدركين الآن إلى أي مدى تغير العالم؟

تعرفت على رامي قبل حوالي ثلاثين سنة، في إحدى محاضرات الجامعة، ومنذ ذلك الوقت لم نتفق على رأي، ومع ذلك أجمعنا لأول مرة أن ما يحصل على صفحات الفيسبوك عبث، ولكننا اختلفنا على سبب رفضه، فقد رأيته طيشًا صبيانيًا يحركه شباب -وربما أطفال- لم تعلمهم الدنيا أي شيء بعد، رسموا في مخيلاتهم مجتمعات حرة، ثم أسقطوا ما رسموه على دول "العالم الأول"، حتى ظنوا بالفعل أنها جِنان، لا فقر فيها ولا ظلم، ليخرجوا وينادوا بنا أن نصبح مثلهم!

أما رامي فقد رأى فعلًا ضرورة التغيير، وأمطرني بكلامه المكرر عن الحرية والعدالة الاجتماعية، التي نفتقدها بحسب تعبيره، ولكنه كان من أنصار "التغيير التدريجي البارد، إحلال طويل المدى للثقافات الإدارية الموجودة، وإدراج شباب يصنعون التغيير ضمن متطلبات العصر مع مراعاة التحديات الداخلية والخارجية، وعلى رأسها مقاومة

التغيير"، وأنا ما زلت من أنصار الاستقرار، بمزاياه وعيوبه، الاستقرار نعمة، اسألي عنها من عانى حروبًا أهلية، اسألي صديقي حسن المُغربي.

***

التقيت حسن في مكة المكرمة عندما زرتها معتمرًا في نهاية التسعينات، كان والدا حسن من الفلسطينيين الذين لجأوا إلى لبنان بعد النكبة، وعاشوا في مخيم "برج البراجنة"، جعلتنا القضية أصدقاء، لا تستغربي، فأنا صديق لكل فلسطينيي العالم، بل أنا صديق لكل مشتّت ومهجَّر. روى لي حسن كيف عاش أيام الحرب الأهلية في لبنان منتصف الثمانينات، بين مطاردات قوات "حزب الكتائب اللبنانية"، ودبابات نظام الأسد، عدم الاستقرار يا سميرة هو ما جعل شقيق حسن يستشهد برصاص اسرائيلي خارج من أيدٍ عربية على أرض لبنان، وهو ما جعل أكثر من ألفَي شهيد يودّعون بؤس الأرض وجورها إلى عدل الرحمن، بعد أن حوصروا لأكثر من خمسين يومًا بلا ماء أو غذاء في "تل الزعتر"، هل أحكي لكِ عن مجزرة "الكرنتينا"؟ أم عن "صبرا وشاتيلا"؟ أم عن "حرب المخيمات"؟ لم تعد نفسي قادرة على هذا الكلام، ولا أظنكِ ستتحملينه، يكفيكِ أن تعرفي أن الاضطراب يحوّل البشر إلى وحوش، لا تقيم وزنًا لأي قيم أو أخلاق أو روابط، تسرق وتنهب وتقتل، قَتَلنا إخوتُنا في بيروت، فبأي اضطراب أؤمِن؟ لا يدفع ضريبة عدم الاستقرار يا سميرة إلا الضعفاء، ونحن ضعفاء وقليلو الحيلة، فكيف نثق بعدم الاستقرار إذًا!

***

الديمقراطية، ما هي الديمقراطية يا سميرة؟ أن تتساوى قيمة كل الناس في المجتمع، الديمقراطية هي الإهانة بعينها، كيف أتساوى مع

طالبي الذي علمته كيف يفكر؟! أو مع ابني الذي كنت أشتري له الحليب والحفاظات، ورأيته حين تعلم نُطق أول حرف، وحين خطا أول خطوة في حياته! أو مع أبي! كيف يتساوى الجاهل والعالم! والفاضل والفاسق! إن من خرج ليدعو إلى الديمقراطية هم أصاغر الناس، الذين فشلوا في الحصول على قيمة لهم بالطرق المعروفة المقبولة، فخرجوا لينتزعوها بالقوة، تبًا للربيع الذي جاء علينا بالجفاف، ولم نقطف منه ثمرة واحدة إلى الآن!

***

عمّت احتجاجات الربيع العربي الأردن منذ بداية 2011، واستمرت لعدة أشهر، خرج الشباب خلالها رافضين أداء الحكومات، ومحتجين على أوضاعهم الاقتصادية، ولكن الحكومة الأردنية تعاملت معها بمهارة عالية، سمعت الشباب في المقهى يتحدثون عنها، قال أحدهم إن قوات الأمن كانت توزع الماء على المتظاهرين، وقال آخر إن جلالة الملك يتعامل معنا كما يتعامل الأب مع ابنه الغاضب، يعلمه درسًا في الحياة دون أن ينسى أنه ابنه، وجزء منه، وقد أمر الملك فعلًا بإقالة الحكومة، والإفراج عن المعتقلين، ومحاسبة المتسببين من الأمن في أي من أعمال العنف، وانتهت المظاهرات بسلام بالنسبة للدولة والكثير من الناس، إلا من تضرر منهم من الانفلات الأمني الذي رافق المظاهرات، مثلنا نحن، فقد سرقت سيارتنا من أمام بيتنا، وما زالت حتى اليوم مجهولة المصير.

لم تكن هذه الحادثة فردية، بل ظاهرة انتشرت في كل المحافظات، كنت لا أجالس مجموعة إلا وبينهم من سرقت سيارته، وسمعت عن الكثير ممن دفع المال لاستردادها، تخيلي أن يتصل السارق بصاحب

السيارة، ثم يعرض عليه شراءها، والمسكين يضطر لذلك بعد أن يفقد الأمل في استعادتها، يدفع ألفين أو ثلاثة مقابل استرجاع سيارته، أو يخسر عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفًا ثمنها الأصلي، أما أنا فلم يتصل بي أحد، فسيارتي "الأفانتي" لا يزيد ثمنها عن أربعة آلاف دينار، لو فككها سارقها وباعها بالقطعة لجلبت له أكثر مما كنت سأفديها به، أعلم أن الحكومة كانت مقصرة في التعامل مع قضية السيارات، على الأقل كان بإمكانها إلغاء "الجمارك" لمن فقد سيارته، فالرسوم الجمركية وحدها قد تصل إلى 400% من ثمن السيارة الأصلي، ولكنني ما زلت ضد الخروج والاحتجاج.

***

ينتابني شعور غريب، راحة لم أعرفها في حياتي من قبل، تكلمت بحماس شديد، ولكن ضغطي لم يرتفع كما كان يرتفع في السنوات الأخيرة، لا أحس بالصداع، ولا ترهقني مشاكل القولون، حتى كوعي الأيسر ساكن ومرتاح، لم أشعر بهذه الراحة في كوعي منذ 2010، أنتِ لا تعلمين ماذا حصل في تلك السنة، فأنا لم أقل لكِ، ولا لأحدٍ غيرك، أما الآن فقد تغير كل شيء، تلاشت كل الحواجز، وجاء وقت الكلام، أنا لا أفعل الآن شيئًا إلا الكلام، كأنني ولد صغير أقول كل ما أعرفه ببراءة، في داخلي شعور متناقض، فعلى الرغم من أنك لا تسمعينني الآن إلا أنني أريدك أن تسمعيني، وتجيبيني على كلامي، وأن تبرري لي جملتك التي قلتِها اليوم، ولكن لو كنتِ تسمعينني لما تكلمت، ليتني عشت حياتي مجنونًا، لا آبه لما أقول، ولا يعنيني ما ينعتني الناس به، فكل شيء يصفونني به هو دون الجنون بلا شك، ولكني عشت رجلًا، وهذا أصعب ما يحافظ عليه الإنسان، لذلك لم أخبركِ حينها بما حصل؛ كنتُ في البيت وحدي، ونهضت لأغيّر لمبة الصالون، وقفت

على وعاء بلاستيكي لأصِلَ إليها، ولكنني فقدت توازني وسقطت، اصطدم كوعي الأيسر بالأرض، ولا أدري أكُسِر أم رُضَّ، ولكنني كنت أشعر بالألم فيه طوال الوقت بعدها، على العكس من الآن، لم يكن لائقًا يا سميرة أن أخبرك أنني سقطت، وأنني أتألم، فالرجال لا ينبغي لها أي من الاثنين.

-10-

أصبت بجلطة في نهاية تموز 2014، آه يا سميرة! من خرج من 2014 بقلب سليم فلا قلب له أصلًا، حوصرت غزة، واستشهد المدنيون، وهدمت المنازل، تراكم الألم الفلسطيني على هذا القلب إلى أن فقد القدرة على الاحتمال، انكسار وراء انكسار، وفشل بعد فشل، وخذلان تلو خذلان، تخلى عنا أشقاؤنا، وليتهم تركونا نواجه مصيرنا وحدنا، ماذا عليهم لو أنهم -فقط- تبرأوا من قضيتنا، وتركونا نقول إنهم ملّوا، أخذتهم الدنيا؟ لم يملّوا يا سميرة، ولم تأخذهم الدنيا، ولم يتبرأوا، بل وضعوا أياديهم في أيدي قتلتنا، طعنونا من الخلف والأمام، ولامونا على قتالنا، إخوتنا تاجروا بنا ثمّ سئموا فباعونا، ولكن لا بأس، فالقضية أكبر منهم، وأكبر من قلبي، فلسطين لنا شاء من شاء، وأبى من أبى، وخان من خان.

سألت نفسي كثيرًا: لماذا يموت الفدائيون في الميدان أو بأيادي الغدر؟ لماذا لا يموتون بالنوبة القلبية مثلنا؟ لا بد أنه العجز، العجز هو السبب، قلوب العاجزين صدئة، المجاهد يُخرج غضبه رصاصًا، فينام بنفس راضية، أما نحن فشجبُنا وتنديدنا لا يكفي لغسل همّنا، فيشتد علينا لنموت بائسين، الحرب تريح الفؤاد يا سميرة.

***

بعد أن تخرّج جمال من الجامعة بعام، نجح ثابت في التوجيهي، لم يتفوق مثل أخيه، وحصل على معدل 82.3 فقط، ليس معدلًا منخفضًا، ولكنه ليس عاليًا أيضًا، ملأت طلب القبول الموحد له، ولم أختر الجامعات البعيدة، مثل "مؤتة" و"اليرموك"، أحسست أنك ارتحتِ حين باشر دراسة العلاج الطبيعي في الجامعة الهاشمية، ربما لأنه سيبقى أمام عينيكِ، ولن يضطر إلى السفر لأسابيع خارج عمان، أو إلى الغربة مثل جمال، في الحقيقة ثابت مختلف عن جمال، أقلّ صلابة منه، حتى مبادئه ليست ثابتة، يقول القول ليرضي سامعه، فلا تعرفين كيف يفكر، وسمعت أن له مغامرات نسائية، والعجيب أن رامي كان معجبًا به أكثر من جمال، كان يسميه مرنًا، على أي حال، سأقلق عليه كثيرًا لو سافر بعيدًا عن عيوننا.

أكثر ما كان يقلقني في دراسته هو المصاريف، سأدفع للساعة الواحدة 30 دينارًا، وهو ما يعني أن أدفع أكثر من 500 دينار في كل فصل كرسوم للساعات، بالإضافة إلى المصاريف الأخرى، مثل المواصلات ومصاريفه اليومية، هل يستطيع موظف مثلي أن يدفع كل هذا من راتبه الذي لا يزيد عن 400 دينار في الشهر، هذا حال الجامعات الحكومية، فكيف به في الجامعات الخاصة؟ أعرف من باع بيته، واكتفى بالخبز والزيت طوال الشهر ليدرس ابنه في جامعة خاصة، التعليم في الأردن أكبر من طاقة الناس.

***

المرة الوحيدة التي غضبت فيها من جمال، وأحسست أنه مختلف عني، عندما منعني من ضربكِ، يبدو أن هذا الجيل لا يؤمن بضرب الزوجات، صفعت صدام لما رأيته يرتدي سلسلة على رقبته، على

زماننا كانت السلاسل للنساء والكلاب فقط، وكان الرجل يُعيَّر برجولته إذا ارتداها، وهذا الولد يرتدي السلاسل والشورتات، لا ينقصه إلا أن يطيل شعره! وعندما لُمتكِ على تربيتك له، وهممت أنا بتربيتك، رأيت جمال يقف بيني وبينك، ابني يمنعني! هل بلغت من الضعف أن يقف ابني في وجهي! على الرغم من أنه استرضاني بعدها، وبرر لي أنكِ امرأة كبيرة، ولا تتحملين الضرب والإهانة، إلا أنني شعرت بالعار، وأحسست أني أفقد السيادة على بيتي، ولكنني هدأت قليلًا حين فكرت أن جمال يأخذ مواقفَ واضحة وحازمة، ولا يساوم كثابت، الذي لم أسمع صوته أبدًا في ذلك اليوم، لا عجب من ذلك، فقد تعود ثابت أن يقف على الحياد، ما أسوأ الحياد يا سميرة!

***

قررت تزويج جمال في صيف عام 2018، فهو رجل ناضج، ومستقل ماليًا، هذا وقت مناسب للبحث عن عروس له، لم يتردد جمال - كعادته- في الإفصاح عن الشروط التي يبحث عنها في زوجته المستقبلية:

- أريدها متعلمة، أفضّل ألا تعمل، ولكني لا أمانع تمامًا.

بالطبع كانت شروطًا لا تعجبني، قطبت جبيني، وأوشكت على الرد، ولكني سكتّ، كنت أعلم أن جمال سيتمسك برأيه، هل تصدقين يا سميرة أنني اكتفيت بالصمت أمام ابني! أنا نفسي لم أصدق، كان سكوتي أقل ألمًا على نفسي من أن يردّ ابني علي بالرفض، وكنت تراقبينني وأنتِ صامتة ومبتسمة، هل ابتسمتِ لأنك رأيتني عاجزًا؟ أم لأن ابنك عريس؟ على أي حال، لم يرد أحد على جمال إلا ثابت:

- متعلمة! فقط! ألا تريدها بيضاء؟ طويلة؟ عيونها زرقاء؟

ثم همس في أذن جمال بعد أن قمت لأغادر الغرفة:

- تعال أعلمك دروسًا عن النساء أيها الفاشل.

وجدنا عروسًا مناسبة، تحمّستم كلكم لها، إلا أنا، فقد كانت مهندسة، ولديها طموحات مهنية، آه، في بيتي امرأة لديها طموحات مهنية! ولكنني لم أبدِ رأيي هذه المرة أيضًا، جمال لم يحتجْ إلى رأيي، ولم يحتج مالي أيضًا، دفع عشرين ألف دينار تكاليفَ عرسه من ماله الخاص، لما رأيتكم كلَّكم موافقين، قلت إنها محتشمة، وأهلها مشهود لهم بالخلق، لاجئون مثلنا، من "سلفيت".

***

اكتملت السنة، وأنجبت ريم ولدًا، أصبحت جَدًا للمرة الثانية، ولكن هذه المرة حفيدي يحمل اسمي: رامي جمال نصر.

-11-

مات رامي في 2018، اكتشف فجأة أنه مصاب بسرطان الرئة، ثم انتقل إلى رحمة ربه بعدها بشهرين، كان مرضه مفاجأة صادمة له ولنا؛ لأنه طوال الوقت كان يتمتع بصحة جيدة، من كان يرانا سويًا يظن أنه ابني، الأثرياء والمتفتحون لا يظهر عليهم التعب، ولا التجاعيد، المال والتفهم يقيان من الصلع والشيخوخة وأمراض القلب، رحمه الله، كان موته مؤلمًا وصعبًا عليّ، لم أذهب بعد وفاته إلى المقهى، لم أتخيل أنني أجلس بدونه هناك، رامي كان جزءًا من المقهى، وجزءًا من الحياة.

رأيت زوجته تبكي على قبره بعد الجنازة، تقاليدهم تختلف عن تقاليدنا، أفراحهم وأحزانهم يختلط فيها الرجال والنساء، زوجته كانت تدعو له، وتذكر محاسنه، تلك زوجة أصيلة على الرغم من اختلافي التام مع نمط معيشتهم، ليست مثلكِ، أنا حين متّ بالأمس، وقفتِ أمام كفني، وقلتِ: "حسبي الله، ونعم الوكيل".

مهند محمد عميرة

كاتب وباحث أردني، ولد في محافظة الزرقاء عام 1987. وهو حاصل على بكالوريوس العلاج الوظيفي من الجامعة الهاشمية/ الأردن، وماجستير إدارة الأعمال من جامعة صحار/ سلطنة عمان. بالإضافة إلى رواية جنازتان في مخيم النصر، نشر مهند خمسة كتب باللغة العربية، وكتابًا واحدًا باللغة الإنجليزية، وهي:

1. **رواية الشتاء الأخير.** وتحكي عن "نائل اليماني" مدير إحدى الشركات الكبرى في العالم، ربما ليس عالمنا الذي نعرفه، ولا زماننا الذي نعيشه. يقطن في قصره الكلاسيكي المليء بالتحف القيمة، أهمها تمثال أوكتافيان الذي تلعب به الريح في قبو القصر. يقرر نائل -لسبب ما- إلغاء إجازته السنوية مع زوجته وابنه، وقضاءها وحيدًا في حي دعاه إليه -في السابق- "ياسر"، الرجل البسيط الذي قابله في مكان ما بالصدفة. يمضي نائل إلى الحي ذي الحارات السبعة، يتمشى فيه بصحبة "شادي"، ابن ياسر، يتعرف على بيوته، ويتحدث مع ساكنيه، ويشاهد عماره وخرابه. يتجول تارة في أماكن فخمة رغيدة،

وتارة أخرى يمر على بيوت أصبحت أطلالًا، أو أوشكت. يحاول نائل الكشف عن تاريخ الحي، وأبرز الأحداث التي مرت عليه، فالحي قديم، وقصص قاطنيه مثيرة للاهتمام، فيها كل ما تحويه النفس البشرية من حب، وكره، وقوة، وضعف، وولاء، وخيانة، وحب للسلطة، وقناعة، واستغلال، وغدر. بشغفه في فهم صراعات المجموعات يحاول استقراء ما يحدث بين أسر الحي من تفاعلات في ذلك الوقت. فجأة، يُقتَل أحد السكان من ذوي النسب العريق، فيشتعل الحي، ولا يهدّئه -مؤقتًا- سوى سفارات بعض سكانه الساعين إلى الصلح، أو ربما إلى أشياء أخرى! القتيل معروف، والقاتل معروف، لكن ما في النفوس لا يدفع الأمور نحو السير ببساطة. يغادر نائل الحي عائدًا إلى قصره بعد أن يحدث ما لا يحمد عقباه.

1. **على عتبات الوهم الفاتنة: فصول عن الحريّات الفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة.** يناقش الكتاب مفهوم الحريّة عند الفلاسفة عبر التاريخ، ويناقش سؤال: ما المدى الحقيقي لحرية الإنسان؟ صدر عن دار المعارف المصرية في 2022.

2. **تحليل الفكر اليهودي.** يقف الفصل الأول في الكتاب عند ملامح الفكر اليهودي، وذلك بتحليل الموسوعةَ اليهودية Encyclopedia Judaica. في الفصل الثاني، يدرس الكتاب حالة الشعر والشعراء العبريين في الأندلس ليختبر نتائج التحليل المستخلصة في الفصل الأول. صدر عن دار المعارف المصرية في 2021.
3. **صنعة الشعر العربي: تأثير الحضارة والثقافة.** وهو كتاب في علم اجتماع الأدب، يبدأ باختبار فرضية تفوق صنعة الشعر العربي على غيره من اللغات، فيدرس الصنعة من وزن وقافية في العديد من اللغات المعاصرة، مثل: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والصينية. ثم يبحث في أسباب تفوق الشعر العربي، ويختبر فيما إذا كانت حضارية أم لغوية. ويناقش في فصوله التالية نشأة صنعة الشعر العربي، وتأثير أشعار الأمم الأخرى فيها، والتغييرات الحاصلة عليها، ثم يتنبأ بمستقبلها اعتمادًا على هذه التغييرات. صدر عن دار المعارف المصرية في 2020.

4. **ثقافة العرب في الجاهلية.** وهو دراسة تحليلية للشعر الجاهلي، يناقش فيها سلوك العرب في تلك الفترة، وملامح ثقافتهم، اعتمادًا على فرضية الباحث "غيرت هوفستيد" في الثقافة، والتي تدرس ثقافة المجتمع من أبعادها الستة: الذكورة، والجماعية، وبعد المسافة، والتوجه طويل المدى، وعدم التيقن، والتساهل. صدر عن دار المعارف المصرية عام 2019.

أما كتابه باللغة الإنجليزية فهو **Culture and Management** ونشرته دار النشر الألمانية لامبرت. وهو كتاب يناقش اختلاف الممارسات الإدارية في علمي الموارد البشرية والتسويق باختلاف الثقافة المؤسسية للمنشآت. صدر الكتاب عام 2018.

ونُشِرَت له ثلاثة أبحاث باللغة الإنجليزية في مجلّات دوليّة محكّمة:

1. Stress levels and coping strategies among parents of children diagnosed with autism and down syndrome: the effect of some demographical variables on the level of

stress. *Child Care in Practice – Taylor and Francis,* 25(2), pp. 146-156. 2018.

2. Caregivers' perspective about the levels of sensory processing challenges in children with autism. *Journal of client-centered nursing care*, 4(3). 2018.
3. Service quality and attitudinal loyalty: Consumers' perception of two major telecommunication companies in Oman. *Arab Economic and Business Journal,* 13(1), pp.197-208. 2018.

بالإضافة إلى العديد من المقالات في علم اجتماع الأدب، والعلاج الوظيفي، والإدارة، على موقعي **الجزيرة** و**ساسة بوست**.

للتواصل مع مهند:

رقم الموبايل: 00201126487347

البريد الإلكتروني:

mohannad.amireh@yahoo.com

حساب الفيسبوك:

https://www.facebook.com/mohannad.amerih

فهرس الكتاب

-1-	3
-2-	7
-3-	13
-4-	17
-5-	25
-6-	33
-7-	39
-8-	45
-9-	49
-10-	55
-11-	59

أما جمال فهو أول فرحةٍ حقيقيةٍ لي في حياتي، هو الدرع الصلب والوتد الراسخ الذي أثبت به رجولتي أمام الناس، وأقول لهم بفخر إن لدي عزوة، إن لديّ ابنًا ذكرًا أصبح به المنزل مكانًا لا أتحسر فيه على شيء ينقصني، وصلت رجولتي إلى المنزل عند مجيء جمال. أسميته جمال تيمنًا بالزعيم الخالد "جمال عبد الناصر"، رمز القوة والرجولة، عند وفاته كنتُ طفلًا في العاشرة، وكان بيتنا في "مخيم النصر" حينها، لم نكن قد انتقلنا إلى ماركا الجنوبية بعد، أذكر وقت إعلان موته أن الأعلام السوداء ارتفعت على كل بيت، وغطت صورهُ ونعيُه الجدران، لدرجة أن صور "ياسر عرفات" و"غسان كنفاني" و"وديع حداد"، اختفت، ولم تكوني قد ولدتِ بعد.

(فقرة من الرواية)

.....

مهند محمد عميرة

باحث وروائي أردني. صدر له: رواية الشتاء الأخير؛ على عتبات الوهم الفاتنة؛ تحليل الفكر اليهودي؛ صنعة الشعر العربي: تأثير الثقافة والحضارة؛ ثقافة العرب في الجاهلية.

لوحة الغلاف: الفنانة رهف ياسر أبو غوش

9 789923 832097

AL.AEDOUN

+962 79 2076184
+962 77 6817399
@al.aedoun
مكتب 11، مجمع يوسف التجاري، شارع الكرمل
جبل الحسين، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية

العائدون للنشر